اَلْمَزْمُورُ الْمِئَةُ وَالسَّادِسُ وَالأَرْبَعُونَ

1هَلِّلُويَا! سَبِّحِي يَا نَفْسِي الرَّبَّ. 2أُسَبِّحُ الرَّبَّ فِي حَيَاتِي، وَأُرَنِّمُ لإِلَهِي مَا دُمْتُ مَوْجُوداً. 3لاَ تَتَّكِلُوا عَلَى الرُّؤَسَاءِ وَلاَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَيْثُ لاَ خَلاَصَ عِنْدَهُ. 4تَخْرُجُ رُوحُهُ فَيَعُودُ إِلَى تُرَابِهِ. فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ نَفْسِهِ تَهْلِكُ أَفْكَارُهُ.

5 طُوبَى لِمَنْ إِلَهُ يَعْقُوبَ مُعِينُهُ، وَرَجَاؤُهُ عَلَى الرَّبِّ إِلَهِهِ، 6الصَّانِعِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ، الْبَحْرَ وَكُلَّ مَا فِيهَا. الْحَافِظِ الأَمَانَةَ إِلَى الأَبَدِ. 7الْمُجْرِي حُكْماً لِلْمَظْلُومِينَ، الْمُعْطِي خُبْزاً لِلْجِيَاعِ. الرَّبُّ يُطْلِقُ الأَسْرَى. 8الرَّبُّ يَفْتَحُ أَعْيُنَ الْعُمْيِ. الرَّبُّ يُقَوِّمُ الْمُنْحَنِينَ. الرَّبُّ يُحِبُّ الصِّدِّيقِينَ. 9الرَّبُّ يَحْفَظُ الْغُرَبَاءَ. يَعْضُدُ الْيَتِيمَ وَالأَرْمَلَةَ. أَمَّا طَرِيقُ الأَشْرَارِ فَيُعَوِّجُهُ. 10يَمْلِكُ الرَّبُّ إِلَى الأَبَدِ، إِلَهُكِ يَا صِهْيَوْنُ إِلَى دَوْرٍ فَدَوْرٍ. هَلِّلُويَا!

تسبيح المعين الوحيد

يسبِّح المرنم في هذا المزمور الرب المخلِّص والمنقذ الوحيد، ويحذِّر سامعيه من الاعتماد على أي مخلوق. وقد يقدم المخلوق معونته في أول الأمر، لكنها لا تستمر لأنه قابل للموت، أما الرب فهو الحي إلى الأبد. ومزمورنا هو أول خمسة مزامير تُعرَف بمزامير الهللويا (146–150) لأنها كلها تبدأ بالكلمة «هللويا» وتنتهي بها (مزمور 147 يبدأ بالقول «سبحوا الرب» وهي نفسها كلمة هللويا)، كان اليهود يرتلونها في العبادة الصباحية. ويقول التقليد اليهودي إن النبيين حجي وزكريا اشتركا في جمع مزامير الهللويا الخمسة، وتضيف الترجمة السبعينية إلى بداية كل مزمور منها القول «لحجي وزكريا». ومزمورنا دعوة قوية لحمد الخالق لا المخلوق، فهو متَّكل جميع البشر، والمصدر الوحيد لكل خير وبركة، وهو يُجري الحق والعدل لكل أتقيائه، ويغفر الذنوب بقوة محبته، ويشبع الجياع من كنز غناه.

في هذا المزمور نجد:

أولاً – تسبيح الرب (آيتا1، 2)

ثانياً – عجز البشر (آيتا 3، 4)

ثالثاً – كفاية الرب (آيات 5–10)

أولاً ـ تسبيح الرب
(آيتا 1، 2)

يبدأ مزمورنا وينتهي بكلمة «هللويا» وهي كلمة عبرية معناها «سبحوا يهوه» أو «سبحان الله» ويُقصد بها تمجيد الرب، واشتُقَّت منها الأفعال في معظم لغات الأرض، وهي تُرنَّم كترنيمة قائمة بذاتها في ألحان موسيقية مشهورة مثل «كورس هللويا» للموسيقار هاندل. وقد دخلت لغتنا العربية كما دخلتها كلمة «آمين» العبرية أيضاً، ومعناها «ثابت» أو «راسخ» أو «صادق» أو «أمين». وعندما نختم بها الصلاة نقصد أن نقول: «ليكن هذا الأمر» أو «استجب».

1 – ضرورة التسبيح: «هللويا. سبحي يا نفسي الرب» (آية 1). دعا المرنم إلى تسبيح الرب عامة، بادئاً بنفسه، فيقول لها بصيغة الأمر: «سبحي يا نفسي». وكأنه يقول: سبِّحيه أيتها النفس الواثقة بالرب، والتي اختبرت صلاحه، وعاشت بفضل عونه وإحساناته. «باركي يا نفسي الرب وكل ما في باطني ليبارك اسمه القدوس. باركي يا نفسي الرب ولا تنسي كل حسناته» (مز 103: 1، 2). سبحي يا أعماقي، ويا سريرتي المستورة عن الناس والمكشوفة أمام خالقك، اشهدي لحقِّه وجلاله ومحبته لك، وخبِّري كم صنع بك ورحمك. رنمي للرب وافرحي به. حدِّثيه في أُنس ومحبة فإنه يسمعك ويتلذذ بك. اجعلي الآخرين يرون فرحك بالرب ويعلمون سبب الرجاء الذي فيك والذي يمكن أن يكون فيهم أيضاً.

2 – دوام التسبيح: «أسبح الرب في حياتي، وأرنم لإلهي مادمت موجوداً» (آية 2). لم يكن تسبيح المرنم من شفتيه فقط، بل كانت حياته كلها تسبيحة للرب. ويشهد لهذا التسبيح تفكيره وسلوكه. وقد عزم أنه مادامت فيه نسمة حياة فلن يكف أو يمل من التسبيح والشكر. والمؤمن يسبح الرب حتى وهو يجوز المصاعب «لأن خفة ضيقتنا الوقتية تنشئ لنا أكثر فأكثر ثقل مجد أبدياً» (2كو 4: 17). وهو يسبح الذي خلقه وحمله كل الأيام الماضية، والذي سيظل يحمله إلى الشيخوخة وإلى الشيبة (إش 46: 4). ولما

كانت حياة المؤمن أبدية في المسيح، فإن تسبيحه يبدأ هنا على الأرض ولا يتوقف أبداً في السماء، حيث عبيده يسبحونه بقيثارات الله (رؤ 15: 2).

ثانياً ـ عجز البشر
(آيتا 3، 4)

1 – نصيحة أمينة: «لا تتكلوا علي الرؤساء ولا على ابن آدم، حيث لا خلاص عنده» (آية 3). ينهانا المرنم عن الاتكال على أصحاب النفوذ من الرؤساء، بالرغم من أنهم قد يفوقوننا قوة أو مركزاً، فنلجأ إليهم ليساعدونا ونحن نعتقد أن سلطتهم ستُنهي مشاكلنا، وننسى أنهم تحت التجارب والآلام مثلنا، وأن عندهم احتياجات يبحثون عمَّن يسددها، ومشاكل يحتاجون إلى من يحلها. ومن همومهم القائلة كيفية الاحتفاظ بسلطانهم، مع أنه لو دام لغيرهم ما انتهى إليهم. أما الأغنياء فيخافون على ضياع مالهم، ويقلقون على استثماره، ومهمومون بجمع المزيد منه، ويشكّون في المتعاملين معهم لئلا يخدعوهم. ومع هذا فالاعتماد على البشر وارد دوماً، حتى أن ربشاقى قائد جيش سنحاريب ملك أشور عيَّر حزقيا ملك يهوذا بقوله: «ما هو هذا الاتكال الذي اتكلته؟..إنك قد اتكلت على عكاز هذه القصبة المرضوضة، على مصر التي إذا توكأ أحد عليها دخلت في كفِّه وثقبتها. هكذا فرعون ملك مصر لجميع المتوكلين عليه» (إش 36: 4، 6). ونُجرَّب أحياناً بأن نعتمد على نفوذنا الشخصي أو مركزنا الاجتماعي أو المالي، وفي لحظة يضيع ما نعتمد عليه! فلنستمع إلى قول الحكيم: «توكَّل على الرب بكل قلبك، وعلى فهمك لا تعتمد» (أم 3: 5). وهذا لا يعني الامتناع كلية عن طرق أبواب إخوة لنا ننشد معونتهم فالأخ للشدة يولد (أم 17: 17). ولكن لنكن أولاً ناظرين إلى فوق، من حيث يأتي عوننا، فإن «معونتي من عند الرب، صانع السماوات والأرض» (مز 121: 2).

2 – مبررات النصيحة: «ولا على ابن آدم، حيث لا خلاص عنده. تخرج روحه فيعود إلى ترابه. في ذلك اليوم تهلك أفكاره» (آيتا 3ب، 4). يبرهن المرنم على صدق نصيحته بأربعة أمور:

(أ) **البشر ضعفاء**: لأنهم أبناء آدم، وكلمة «آدم» من الكلمة العبرية «أدماه» ومعناها الأرض، فقد «جبل الرب الإله آدم تراباً من الأرض ونفخ في أنفه نسمة حياة، فصار آدم نفساً حية» (تك 2: 7). فرؤساء اليوم هم تراب الغد يدوسهم الإنسان والحيوان!

(ب) **البشر لا ينجّون أحداً**: «لا خلاص عنده» الإنسان لا يستطيع أن يخلص نفسه إن لم تأته معونة من أعلى، ولا يقدر أن يفدي نفسه من عقوبة الخطية. وإن كان عاجزاً عن إنقاذ نفسه، فكيف ينقذ غيره!

(ج) **البشر مائتون**: «تخرج روحه فيعود إلى ترابه» (آية 4أ). الإنسان تراب تذريه الريح. ومهما علا يوماً وملأ الجو فإن مصيره النهائي هو القبر. بعرق وجهه يأكل خبزاً حتى يعود إلى الأرض التي أُخذ منها. «لأنك تراب، وإلى ترابٍ تعود» (تك 3: 19). فكيف نتكل على العدم غير الموجود؟!

(د) **تدبيرات البشر وقتية**: «في ذلك اليوم نفسه تهلك أفكاره» (آية 4ب). يظن الإنسان أنه باقٍ إلى الأبد، فيحلم ويخطط ويطمح. ولكن ما هي حياتنا؟ إنها بخار يظهر قليلا ثم يضمحل (يع 4: 14). كان يجب أن يقول: «إن شاء الرب وعشنا نفعل هذا أو ذاك» (يع 4: 15). والإنسان الحكيم هو الذي يصلي قائلاً: «عرِّفني يا رب نهايتي، ومقدار أيامي كم هي، فأعلم كيف أنا زائل. هوذا جعلت أيامي أشباراً، وعمري كلا شيء قدامك. إنما نفخة كل إنسان قد جُعل. إنما كخيال يتمشّى الإنسان» (مز 39: 4–6). فكيف نتكل على زائل مثلنا؟ «هكذا قال الرب: ملعون الرجل الذي يتكل على الإنسان ويجعل البشر ذراعه، وعن الرب يحيد قلبه. مبارك الرجل الذي يتكل على الرب، وكان الرب متكله» (إر 17: 5، 7).

ثالثاً ـ كفاية الرب
(آيات 5-10)

1 – تطويب الواثق في الرب: «طوبى لمن إله يعقوب معينه، ورجاؤه على الرب إلهه» (آية 5). هناك سعادة وفرح ورجاء لمن تجيء معونته من عند الرب، الذي غيَّر يعقوب المتعقب لأخيه عيسو وجعل منه «إسرائيل» الذي يجاهد مع الله، فقال: «صغير أنا عن جميع ألطافك وجميع الأمانة التي صنعت إلى عبدك» (تك 32: 10). من كان الرب معينه له فيض بركة ونبع سلام لا ينضب، به يتقوى ويحتمي ولا يخزى، لأن الرب صالح وأمين وأمانته إلى الأبد. حتى إن كنا غير أمناء فهو يبقى أميناً، لن يقدر أن

ينكر نفسه (2تي 2: 13). «طوبى للرجل الذي جعل الرب متكله، ولم يلتفت إلى الغطاريس والمنحرفين إلى الكذب» (مز 40: 4)، فيقول: «بك يا رب احتميت فلا أخزى إلى الدهر.. لأنك أنت رجائي يا سيدي الرب، متكلي منذ صباي» (مز 71: 1، 5).

2 – أسباب الثقة في الرب: (آيات 6–10).

(أ) **الرب هو الخالق:** «الصانع السماوات والأرض، البحرَ وكل ما فيها» (آية 6أ). في الرب كفاية المؤمن لأنه القوي خالق السماوات والأرض، وصاحب السلطان فيها كلها. سلطانه على السماوات وكل ما فيها من شمس وقمر ونجوم وكواكب، وهو موجد الأرض وما عليها والمسكونة والساكنين فيها، «قلب الملك في يد الرب كجداول مياه، حيثما شاء يُميله» (أم 21: 1). فنقول له: «أنت هو الرب وحدك. أنت صنعت السماوات وسماء السماوات وكل جندها، والأرض وما عليها، والبحار وكل ما فيها، وأنت تحييها كلها، وجند السماء لك يسجد» (نح 9: 6).

(ب) **الرب أمين:** «الحافظ الأمانة إلى الأبد» (آية 6ب). في الرب كفاية المؤمن لأنه أمين لوعوده، كما قال يشوع: «لم تسقط كلمة من جميع الكلام الصالح الذي كلَّم الرب به بيت إسرائيل. بل الكل صار» (يش 21: 45)، وقال سليمان الحكيم: «مباركٌ الرب الذي أعطى راحةً لشعبه إسرائيل حسب كل ما تكلم به، ولم تسقط كلمة واحدة من كل كلامه الصالح الذي تكلم به عن يد موسى عبده» (1مل 8: 56).

(ج) **الرب عطوف:** (آيات 7–9).

في الرب كفاية المؤمن لأنه عطوف على الجميع، وقد قال المسيح: «روح الرب عليَّ، لأنه مسحني لأبشر المساكين، أرسلني لأشفي المنكسري القلوب، لأنادي للمأسورين بالإطلاق، وللعمى بالبصر، وأرسل المنسحقين في الحرية، وأكرز بسنة الرب المقبولة» (لو 4: 18، 19). ويذكر المرنم ثمانية أنواع من الناس الذين يعطف الرب عليهم:

(1) المظلوم: «المُجري حُكماً للمظلومين» (آية 7أ). الإنسان ظلوم لأخيه الإنسان لكن «الرب يُجري العدل والقضاء لجميع المظلومين» (مز 103: 6) فإن ظُلمت سلِّمه شكواك، وانتظره واصبر له، فإنه يقيم دعواك ويُخرج مثل النور برك وحقك مثل الظهيرة (مز 37: 6).

(2) الجائع: «المعطي خبزاً للجياع» (آية 7ب). أطعم بني إسرائيل في البرية أربعين سنة بالمن، وعندما طلبوا اللحم أعطاهم السلوى «لأنه يشبع نفساً مشتهية، وملأ نفساً جائعة خبزاً» (مز 107: 9). وقد علَّمنا المسيح أن نطلب منه خبزنا كفافنا (مت 6: 11)، وهو القادر أن يفعل فوق كل شيء، أكثر جداً مما نطلب أو نفتكر (أف 3: 20). وهو يشبع جوعنا الروحي بنفسه، فقد قال المسيح: «أنا هو خبز الحياة. من يُقبِل إليَّ فلا يجوع، ومن يؤمن بي فلا يعطش أبداً» (يو 6: 35).

(3) الأسير: «الرب يطلق الأسرى» (آية 7ج). الرب يفك القيود ويطلق الأسير إلى الحرية. كان بطرس مسجوناً يحرسه ستة عشر جندياً، وصلَّت الكنيسة من أجله، فأرسل الرب ملاكه وأيقظه وأسقط السلاسل من يديه ورجليه وفتح له باب السجن وأطلقه حراً (أع 12). وعندما كان بولس وسيلا سجينين في فيلبي «حدثت بغتة زلزلة عظيمة حتى تزعزعت أساسات السجن، فانفتحت في الحال الأبواب كلها، وانفكت قيود الجميع» (أع 16: 26).. على أن إطلاق الأسرى الأخطر والأهم هو تحرير أسرى الخطية الذين قيدهم إبليس، فيخلصهم الرب ويمنحهم حياة جديدة كما فعل المسيح مع السامرية (يو 4) ومع المرأة الخاطئة (يو 8) وزكا العشار (لو 19).. وهو يحرر من الخوف واليأس والفشل والمرارة والحقد والعادات السيئة «الرب فادي نفوس عبيده، وكل من اتكل عليه لا يُعاقب» (مز 34: 22).

(4) الأعمى: «الرب يفتح أعين العمي» (آية 8أ). يفتح أعين الجسد كما شفى المسيح المولود أعمى (يو 9) والأعميين اللذين صرخا إليه فأعطاهما بحسب إيمانهما (مت 9). وهو يشفي من عمى البصيرة الذي هو أخطر من عمى البصر، وقد قال المسيح: «أنا هو نور العالم. من يتبعني فلا يمشي في الظلمة، بل يكون له نور الحياة» (يو 8: 12).

(5) المنحني: «الرب يقوِّم المنحنين» (آية 8ب). شفى المسيح المرأة المنحنية التي لم تكن تقدر أن تنتصب البتة بعد أن ربطها الشيطان ثماني عشرة سنة «ووضع عليها يديه، ففي الحال استقامت ومجدت الله» (لو 13: 13). وهو يقوِّم كل من أثقلته الهموم فانحنى تحتها، لأنه القائل: «تعالوا إليَّ يا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال وأنا أريحكم» (مت 11: 28).

(6) الصدِّيق: «الرب يحب الصدّيقين» (آية 8ج). الصديق هو البار، أي صاحب الموقف السليم من الله، وليس أحد باراً في ذاته، ولكنه يتبرر بالإيمان بالمسيح، «فإذْ قد تبررنا بالإيمان لنا سلام مع الله بربنا يسوع المسيح، الذي به أيضاً قد صار لنا الدخول بالإيمان إلى هذه النعمة التي نحن فيها مقيمون» (رو 5: 1، 2). والرب يحب الصديقين لأنهم لم يحاولوا تبرير نفوسهم، بل لجأوا إلى رحمته صارخين: «اللهم ارحمني أنا الخاطي» فصاروا مبرَّرين (لو 18: 13، 14). «أما خلاص الصديقين فمن قِبَل الرب، حصنهم في زمان الضيق» (مز 37: 39).

(7) الغريب: «الرب يحفظ الغرباء» (آية 9أ). يحفظ الرب الغريب المسافر العابر، غير المستقر، اللاجئ الذي ليس لـه حق إقامة، لأنهم بلا معين. يهتم الرب بالطبقات المهمَّشة في المجتمع، لأنه خالقهم وأبوهم. وهو يقول لكل من يهتم بهم: «بما أنكم فعلتموه بأحد إخوتي هؤلاء الأصاغر فبي فعلتم» (مت 25: 40). وليست الغربة مجرد اغتراب جسدي عن الوطن أو ابتعاد عـن الأهل، فهناك اغتراب نفسي وإحساس بالوحدة حتى لو كان الشخص يعيش بين أهله. وهناك وحدة واغتراب في المرض، فنصرخ للرب: «التفِتْ إليَّ وارحمني لأني وحد ومسكين أنا» (مز 25: 16) فيسمعنا ويرد سبينا ويحفظ نفوسنا ويهدينا إلى سبل البر مـن أجل اسمه.

(8) اليتيم والأرملة: «الرب يعضد اليتيم والأرملة» (آية 9ب). يساند الرب من لا سند له. «غنّوا لله. رنموا لاسمه.. أبو اليتامى وقاضي الأرامل الله في مسكن قدسه» (مز 68: 4، 5). أسند الرب الأرملة وابنها اليتيم بعد أن أعطت النبـي إيليـا أولوية في الكعكة التي خبزتها، حتى أن «كوار الدقيق لم يفرغ وكوز الزيت لم ينقص حسب قول الرب الذي تكلم به عن يد إيليا» (1مل 17: 16). وتحنن المسيح على أرملة نايين وأقام وحيدها من الموت (لو 7: 12-15).

(د) **الرب يعاقب الشرير:** «أما طريق الأشرار فيعوِّجه» (آية 9ج). في الرب كفاية المؤمن لأنه يعاقب الشـرير، ويخرج من عوجه بركة للمؤمن. «مكرهة الرب طريق الشرير» (أم 15: 9) لأنها طريق الحيدان عن الـرب، وليسـت طريـق الوصية المستقيمة، والحائدون عن الرب في التراب يُكتَبون (إر 17: 13). ويرد الرب الشر على رأس الشرير، كما قـال للملـك أخآب الذي قتل نابوت اليزرعيلي واغتصب كرمه: «في المكان الذي لحست فيه الكلاب دم نابوت تلحس الكلاب دمك أنت أيضاً» (1مل 21: 19). يعوِّج الرب طريق الشرير ليحمي المؤمن منه، فيخرج من الآكل أكل ومن الجافي حلاوة (قض 14: 14)، كما قال يوسف لإخوته: «أنتم قصدتم لي شراً، أما الله فقصد به خيراً.. ليحيي شعباً كثيراً» (تك 50: 20).

(هـ) **الرب هو الملك:** «يملك الرب إلى الأبد. إلهك يا صهيون إلى دور فدور. هللويا» (آية 10). في الـرب كفايـة المؤمن لأنه ملك الملوك ورب الأرباب، وليس لملكه نهاية. كل ملوك الأرض يبيدون ويموتون، ولكن الرب حي إلى الأبد، يسبحه المؤمن لأنه ملك حياته المتربع على عرش قلبه يستحق شكره وتكريمه وحمده، يعظم اسمه ويعلن حقه ويعرِّف بصلاحه ويخبـر الجميع بجوده. الرب هو السيد منذ الأزل وإلى الأبد، وهو ليس محدوداً بمكان، وليس إله شعب دون شعب، وهو يقول: «وُجـدت من الذين لم يطلبوني، وصرت ظاهراً للذين لم يسألوا عني» (رو 10: 20 مقتبسة من إش 65: 1) وهـو يقـول: «مـن يغلـب فسأجعله عموداً في هيكل إلهي، ولا يعود يخرج إلى خارج، وأكتب عليه اسم إلهي واسم مدينة إلهي أورشليم الجديدة النازلة مـن السماء من عند إلهي واسمي الجديد» (رؤ 3: 12).

هللويا! سبحوه. باركوه. مجدوه، يبارككم ويحرسكم ويضيء بوجهه عليكم ويرحمكم، ويرفع وجهه عليكم ويمنحكم سلاماً (عدد 6: 24-26).

اَلْمَزْمُورُ الْمِئَةُ وَالسَّابِعُ وَالأَرْبَعُونَ

1سَبِّحُوا الرَّبَّ، لأَنَّ التَّرَنُّمَ لإِلهِنَا صَالِحٌ. لأَنَّهُ مُلِذٌّ. التَّسْبِيحُ لاَئِقٌ. 2الرَّبُّ يَبْنِي أُورُشَلِيمَ. يَجْمَعُ مَنْفِيِّـي إِسْرَائِيلَ. 3يَشْفِي الْمُنْكَسِرِي الْقُلُوبِ، وَيَجْبُرُ كَسْرَهُمْ. 4يُحْصِي عَدَدَ الْكَوَاكِبِ. يَدْعُو كُلَّهَا بِأَسْمَاءٍ. 5عَظِيمٌ هُوَ رَبُّنَا وَعَظِيمُ الْقُوَّةِ. لِفَهْمِهِ لاَ إِحْصَاءَ. 6الرَّبُّ يَرْفَعُ الْوُدَعَاءَ، وَيَضَعُ الأَشْرَارَ إِلَى الأَرْضِ.

7أَجِيبُوا الرَّبَّ بِحَمْدٍ. رَنِّمُوا لإِلهِنَا بِعُودٍ. 8الْكَاسِي السَّمَاوَاتِ سَحَاباً، الْمُهَيِّئُ لِلأَرْضِ مَطَراً، الْمُنْبِتِ الْجِبَالَ عُشْباً، 9الْمُعْطِي لِلْبَهَائِمِ طَعَامَهَا، لِفِرَاخِ الْغِرْبَانِ الَّتِي تَصْرُخُ. 10لاَ يُسَرُّ بِقُوَّةِ الْخَيْلِ. لاَ يَرْضَى بِسَاقَيِ الرَّجُلِ. 11يَرْضَى الرَّبُّ بِأَتْقِيَائِهِ، بِالرَّاجِينَ رَحْمَتَهُ.

12سَبِّحِي يَا أُورُشَلِيمُ الرَّبَّ. سَبِّحِي إِلَهَكِ يَا صِهْيَوْنُ. 13لأَنَّهُ قَدْ شَدَّدَ عَوَارِضَ أَبْوَابِكِ. بَارَكَ أَبْنَـاءَكِ دَاخِلَكِ. 14الَّذِي يَجْعَلُ تُخُومَكِ سَلاَماً، وَيُشْبِعُكِ مِنْ شَحْمِ الْحِنْطَةِ. 15يُرْسِلُ كَلِمَتَهُ فِي الأَرْضِ. سَـرِيعاً جِـدّاً يُجْرِي قَوْلَهُ. 16الَّذِي يُعْطِي الثَّلْجَ كَالصُّوفِ، وَيُذَرِّي الصَّقِيعَ كَالرَّمَادِ. 17يُلْقِي جَمْدَهُ كَفُتَاتٍ. قُدَّامَ بَـرْدِهِ مَـنْ يَقِفُ؟ 18يُرْسِلُ كَلِمَتَهُ فَيُذِيبُهَا. يَهُبُّ بِرِيحِهِ فَتَسِيلُ الْمِيَاهُ. 19يُخْبِـرُ يَعْقُـوبَ بِكَلِمَتِـهِ، وَإِسْـرَائِيلَ بِفَرَائِضِـهِ وَأَحْكَامِهِ. 20لَمْ يَصْنَعْ هكَذَا بِإِحْدَى الأُمَمِ، وَأَحْكَامُهُ لَمْ يَعْرِفُوهَا. هَلِّلُويَا!

التسبيح مُلِذٌّ ولائق

هذا مزمور تسبيح لله لا نعرف بالضبط زمن كتابته، فربما يكون قد كُتب أثناء العودة من السبي، وفيه يقدم الشعب الشـكر لله الذي جمع شعبه من بلاد السبي وأعادهم إلي أرضهم تحقيقاً لنبوَّة إرميا: «ها أيامٌ تأتي يقول الـرب وأرد سـبي شـعبي إسـرائيل ويهوذا، يقول الرب، وأُرجعهم إلى الأرض التي أعطيت آباءهم إياها فيمتلكونها» (إر 30: 3)، وربما كُتب بمناسـبة إعـادة بنـاء أسوار أورشليم بقيادة نحميا، كما يقول الوحي: «وعند تدشين سور أورشليم طلبوا اللاويين من جميع أماكنهم ليأتوا بهم إلى أورشليم لكي يدشنوا بفرحٍ وحمد وغناءٍ بالصنوج والرباب والعيدان» (نح 12: 27). وأياً كانت مناسبة كتابة المزمور، فهو دعوة مفتوحـة لكل شعب الرب ليسبحوا الرب ويتغنوا بمراحمه وإحساناته، فتسبيحه لائق وواجب في كل وقت وكل ظرف، لأنه صالح ومحبته لا تتوقَّف أبداً ولا تتغير، فنهتف: «أغني للرب في حياتي. أرنم لإلهي ما دمت موجوداً، فيلذُّ له نشيدي، وأنا أفرح بالرب» (مز 104: 33، 34).

في هذا المزمور ثلاثة أقسام رئيسية، يبدأ كل قسم منها بدعوة للتسبيح، يعقبها توضيح أسباب هذا التسبيح وموضوعه، ليـذكر المؤمن جود الرب الدائم وذراعه الممدودة ويمينه القوية، فإن «الرب ملجأٌ لشعبه» (يوء 3: 16) و«الإلـه القـديم ملجـأ، والأذرع الأبدية من تحت» (تث 33: 27).

في هذا المزمور نجد:

أولاً – شكر على ردّ السبي (آيات 1–6)

ثانياً – شكر على العناية الإلهية (آيات 7–11)

ثالثاً – شكر على السلام (آيات 12–20)

أولاً ـ شكر على ردّ السبي
(آيات 1-6)

1 – دعوة للتسبيح: «سبحوا الرب لأن الترنُّم لإلهنا صالح، لأنه مُلذّ. التسبيح لائق» (آية 1). هذه دعوة وهي في الوقت نفسه أمر.

(أ) التسبيح صالح: «سبِّحوا.. لأن الترنم لإلهنا صالح». ارفعوا أصوات الحمد ليسمع الرب الصالح أصواتكم، و«ليس أحدٌ صالحاً إلا واحد وهو الله» (مت 19: 17)، والتسبيح يُسرُّه. وإن كانت الخليقة كلها تسبح ربَّ الكون فجديرٌ بنا أن نشترك معها في تمجيده، وهو القائل: «ذابح الحمد يمجدني، والمقوِّم طريقه أُريه خلاص الله» (مز 50: 23). والتسبيح صالح للـرب الصـالح لجميع الذين يطلبون وجهه، فهو مصدر كل صلاح، وعندما نرنم له تصبح قلوبنا وأفكارنا صالحة، ونبتهج ونتقوى ونتشجع، ويزول عنا اليأس والخوف، ونهزم إبليس ونقوى على أعدائنا. والترنم لإلهنا صالح لمن يسمعون تسبيحنا، لأنه يدعوهم ليشتركوا معنا فـي

أفراح التسبيح، عملاً بالوصية الرسولية: «أمسرور أحد؟ فليرتِّل» (يع 5: 13). والتسبيح أفضل استخدام للغة الكلام، وأمتع اجتماع يتناغم فيه الإخوة معاً فرحاً بالأب الواحد الذي يشتركون في الإنشاد له.

(ب) **التسبيح مُلذ**: «لأنه مُلذّ» (آية 1ب). ملذ للرب وملذ للمرنم، فهو ينعش العقل والقلب «سبحوا الرب لأن الرب صالح. رنموا لاسمه لأن ذاك حلو» (مز 135: 3).

(ج) **التسبيح لائق**: «التسبيح لائق» (آية 1ج). لائق بالرب لأنه صاحب الفضل علينا، فنحن به نحيا ونتحرك ونوجد، وبدونه لا نقدر أن نفعل شيئاً. وهو لائق بالجلال الإلهي، ولائق بنا لنردَّ له شيئاً من حسناته، فكل شيء عندنا هو من عنده. فلنقدم «في كل حين لله ذبيحة التسبيح، أي ثمر شفاه معترفة باسمه» (عب 13: 15). والتسبيح لائق لأنه تعبير عن محبتنا لمن أحبنا فضلاً وبذل نفسه عنا ليردَّ سبي نفوسنا من أرض الضلال ويعيدنا إلى حظيرته فيباركنا، ويوسِّع لنا من بعد ضيق، ويقرِّبنا إليه من بَعد بُعد، ويشفينا من بعد مرض، ويُشبعنا من بعد جوع، ويُلبسنا ثياب البر من بعد عري الخطية.

2 – الدافع على التسبيح: (آيات 2–6).

(أ) **الله يبني ويجمع**: «الرب يبني أورشليم، يجمع منفيّي إسرائيل» (آية 2). عندما عصى بنو إسرائيل الرب سمح بسبيهم إلى بابل، فحُرموا من عبادته في هيكله المقدس. وعندما انتهت سنوات السبي السبعون أعادهم إلى بلادهم فأعادوا بناء أسوار أورشليم المهدَّمة، فامتلأت أفواههم ضحكاً وألسنتهم ترنماً للرب الصالح الذي جمعهم من بعد شتات، وسبَّحوه لأنه يبني ما أخربه العدو، ولا يترك مدينته، ولا يتخلى عن أتقيائه، ويعين الضعيف ويقيم الساقط. فتحققت لهم نبوَّة إشعياء: «مفديو الرب يرجعون ويأتون إلى صهيون بالترنم، وعلى رؤوسهم فرح أبدي. ابتهاج وفرح يدركانهم. يهرب الحزن والتنهد» (إش 51: 11). ولا زال الرب يبني المؤمنين هياكل للروح القدس بعد أن هدمتهم الخطية وأبعدتهم عن الله «فإنكم أنتم هيكل الله الحي كما قال الله: إني سأسكن فيهم، وسأسير بينهم، وأكون لهم إلهاً، وهم يكونون لي شعباً» (2كو 6: 16).

(ب) **الله يعزي**: «يشفي المنكسري القلوب ويجبر كسرهم» (آية 3). كم حزن بنو إسرائيل في السبي وهم يذكرون مدينتهم ومقدساتهم التي دنسها الوثنيون ودمروها، وحزنوا على خطاياهم التي أوقعتهم أسرى شعب وثني لا يعرف الله، فصارت آثامهم فاصلةً بينهم وبين إلههم ومكان عبادته. وقد عبَّر الوالي نحميا عن هذا في قوله: «بكيتُ ونُحْتُ أياماً، وصُمْت وصلَّيت أمام إله السماء. وقلت للملك.. كيف لا يكمد وجهي والمدينة بيت مقابر آبائي خراب وأبوابها قد أكلتها النار؟» (نح 1: 4 و2: 3). ولكن الرب عزّاهم وشفى قلوبهم الكسيرة برحمته.. واليوم يعزينا الرب، فقد جاء المسيح إلى أرضنا ليشفي منكسري القلوب (لو 4: 18) من ارتكاب خطية، أو خيانة عزيز، أو فقد قريب، أو ضياع أمل، فتنحني النفس تحت هذا الحمل الثقيل وتصرخ إلى الرب، فيسمع، ويعصب ويجبر ويغفر ويشفي ويفدي من حفرة اليأس ويكلل بالرحمة والرأفة (مز 103). فما أمجد أن نذكر أن لنا رجاءً في المسيح الذي تألم مجرَّباً ويقدر أن يُعين المجرَّبين (عب 2: 18).

(ج) **الله يعرف**: «يُحصي عدد الكواكب. يدعو كلها بأسماء. عظيم هو ربنا وعظيم القوة. لفهمه لا إحصاء» (آيتا 4، 5). قال الله لخليله إبراهيم: «انظر إلى السماء وعُدَّ النجوم إن استطعت أن تعدَّها» (تك 15: 5). وهو يقول للبشر: «ارفعوا عيونكم وانظروا: من خلق هذه؟ من الذي يُخرج بعددٍ جُندها، يدعو كلها بأسماء؟ لكثرة القوة وكونه شديد القدرة لا يُفقَد أحد.. أما عرفت، أم لم تسمع؟ إله الدهر الرب، خالق أطراف الأرض، لا يكل ولا يعيا. ليس عن فهمه فحص» (إش 40: 26، 28). فلنسبِّح خالق الكون الذي يعرف عدد النجوم التي خلقها، ويميِّزها بأسماء، ولا يسقط كوكبٌ منها بدون أمره، فإنه خلق كل الأشياء، وهي بإرادته كائنة. لقد أوجدت كلمة قدرته الكون كله من لا شيء، وتحفظه إلى الدهر. «كل ما شاء الرب صنع في السماوات وفي الأرض، في البحار وفي اللجج» (مز 135: 6). وهو الذي أوجدنا، ويرعانا. حتى شعور رؤوسنا جميعها محصاة، ولا تسقط واحدة منها دون إذنه (متى 10: 30). إنه يعرفنا بأسمائنا (يو 10: 3)، ويشعر معنا، ويتضايق لضيقنا، وملاك حضرته يخلِّصنا (إش 63: 9) ويقول لنا: «لا تخف لأني فديتك. دعوتك باسمك، أنت لي» (إش 43: 1).

(د) **الله يحكم بالعدل**: «الرب يرفع الودعاء، ويضع الأشرار إلى الأرض» (آية 6). عندما أخطأ بنو إسرائيل عاقبهم الله بالعدل، وأسلمهم لأعدائهم. وفي السبي انكسرت قلوبهم على خطاياهم، فكان العادل الرحيم الذي حقَّق وعده لسليمان: «إذا تواضع شعبي الذين دُعي اسمي عليهم، وصلّوا وطلبوا وجهي، ورجعوا عن طرقهم الرديئة، فإنني أسمع من السماء، وأغفر خطيتهم، وأبرئ أرضهم» (2أي 7: 14). رفع الله وجه نحميا الوديع المتواضع الذي اعترف بخطايا بني إسرائيل، وخطايا بيت أبيه، وخطاياه هو (نح 1: 6) ووضع الأشرار الذين عطلوا بناء بيت الرب إلى الأرض. حقاً إن الرب «يحب الحق، ولا يتخلى عن أتقيائه. إلى الأبد يُحفَظون. أما نسل الأشرار فينقطع. الصدِّيقون يرثون الأرض ويسكنونها إلى الأبد» (مز 37: 28، 29).

«معروفٌ هو الرب. قضاءً أمضى. الشرير يَعْلَق بعمل يديه. الأشرار يرجعون إلى الهاوية، كل الناسين الله» (مز 9: 16، 17). أما الودعاء فطوبى لهم لأنهم يرثون الأرض (مت 5: 5).

ثانياً ـ شكر على العناية الإلهية
(آيات 7-11)

1 – دعوة للتسبيح: «أجيبوا الرب بحمد. رنِّموا لإلهنا بعود» (آية 7). يكرر المرنم الدعوة لشعبه ليجيبوا على إحسانات الرب بالحمد والترنيم، بأصواتهم وآلاتهم الموسيقية. لقد ردَّ سبي الشعب الذي أخطأ فيجب أن يتجاوب شعبه معه بحمده والترنيم له. عندما أخطأ آدم وعصى الرب اختبأ من الرب، ففتَّش الرب عليه لأنه يريد أن يستر عريه. كان يجب أن يذهب آدم المخطئ إلى الرب معترفاً بذنبه طالباً غفرانه، ولما لم يفعل ناداه الله ليستره. ولا زال الرب يفتش عن كل ضال حتى يجده. «الله كان في المسيح مصالحاً العالم لنفسه، غير حاسبٍ لهم خطاياهم» (2كو 5: 19). فلنجِب على صلاح الرب بالحمد من القلب واللسان، وليعلُ صوتنا مع آلات العزف قائلين: «قوَّتي وترنُّمي الرب، وقد صار لي خلاصاً» (مز 118: 14).

2 - الدافع على التسبيح: (آيات 8–11).

(أ) شكر على الثروة الزراعية: «الكاسي السموات سحاباً، المهيئ للأرض مطراً، المنبتِ الجبال عشباً» (آية 8). يجب أن يحمد الشعب الرب لأنه لم يخلقهم ويتركهم للظروف، بل اعتنى بهم ودبَّر كل احتياجاتهم، وهيَّأ كل ما يجعل الزرع والأعشاب تنمو. حتى الجبال التي لا يسكنها أحد نالت نصيبها من عناية الرب كما تناله الوديان. «الساقي الجبال من علاليه. من ثمر أعمالك تشبع الأرض. المنبت عشباً للبهائم وخضرة لخدمة الإنسان، لإخراج خبز من الأرض» (مز 104: 13، 14).

(ب) شكر على الثروة الحيوانية: «المعطي البهائم طعامها، لفراخ الغربان التي تصرخ» (آية 9). نقدم الشكر للرب الذي يعتني بكل خليقته من ضعيف وقوي، فالبهائم ذات أحجام كبيرة وأجساد قوية، والإنسان يستخدمها في مساعدته، لكن الرب يعطيها طعامها لأنها تعجز عن تدبير قوتها بنفسها. أما صغار الغربان العاجزة عن العناية بنفسها فتجد أيضاً الرعاية الإلهية. وقد سأل الله أيوب: «من يهيئ للغراب صيده إذ تنعب فراخه إلى الله وتتردد لعدم القوت؟» (أي 38: 41). قال المسيح: «تأملوا الغربان. إنها لا تزرع ولا تحصد، وليس لها مخدع ولا مخزن. والله يُقيتها. كم أنتم بالحري أفضل من الطيور!» (لو 12: 24). فلنشكر الرب الذي لا ينسى أحداً.

(ج) شكر على الرضى الإلهي: «لا يُسرُّ بقوَّة الخيل. لا يرضى بساقي الرجل. يرضى الرب بأتقيائه، بالراجين رحمته» (آيتا 10، 11). يتحدث المرنم عن أسلحة الحرب في أيامه، فيذكر قوة الخيل وقدرة الرجال على سرعة الجري في الكر والفر، ويقول إن بني إسرائيل الذين لم يقدروا أن يصمدوا في الحرب أمام جحافل مملكة بابل، عادوا إلى أرضهم، بسبب رضا الرب عليهم. ولم تقُم عودتهم على قوتهم الحربية، بل على تقواهم وانتظارهم لرحمته، فالرب يكرم أتقياءه الذين يخشونه ويخضعون له بخوف المحبة وطاعتها. قال المرنم: «لن يخلُص الملك بكثرة الجيش. الجبار لا يُنقَذ بعِظم القوة. باطلٌ هو الفرس لأجل الخلاص، وبشدَّة قوته لا ينجي. هوذا عين الرب على خائفيه الراجين رحمته» (مز 33: 16–18).

ثالثاً ـ شكر على السلام
(آيات 12-20)

1 – دعوة للتسبيح: «سبحي يا أورشليم الرب. سبحي إلهك يا صهيون» (آية 12). لا يتوقف المرنم عن دعوة شعبه وتشجيعهم ليسبحوا ربهم الذي اختارهم ليكونوا دُعاة الحق والخير في العالم، فقد اختار أورشليم وحصن صهيون مكاناً لإقامة هيكل سليمان. ويشجع المرنم شعبه ليفرحوا ويعلنوا عن فرحهم بالامتياز والاختيار الإلهيين. ومن يجب أن يسبح الرب كشعب الرب الذي دُعي عليه اسمه، والذي ردَّ سبيه بنعمته! فلنسبح هذا الإله العظيم، الذي نحن له والذي نعبده وننتمي إليه، قائلين مع المرنم: «من لي في السماء؟ ومعك لا أريد شيئاً في الأرض» (مز 73: 25).

2 – الدافع على التسبيح: (آيات 13–20).

(أ) عناية الله: (آيتا 13، 14).

(1) تمنح الحماية: «لأنه قد شدَّد عوارض أبوابك، وبارك أبناءك داخلك» (آية 13). العوارض هي العتب الأعلى الذي يثبت فيه الباب لكي يدور فينفتح وينغلق بسهولة (انظر نح 3: 3، 6، 13–15). وقد شدَّد الله عوارض الأبواب

العليا لكي لا تسقط، ولتنفتح لأهل البيت الداخلين بسلام، ولتنغلق في وجه الأعداء فيحمي الله شعبه، فيكونون «كطيور مُرفَّة. هكذا يحامي رب الجنود عن أورشليم. يحامي فينقذ. يعفو فينجي» (إش 31: 5). لقد حمى الله أبكار شعبه الموجودين داخل بيوتهم من الملاك المهلك، بينما هلك أبكار المصريين، لأن بني إسرائيل أطاعوا التوجيه الإلهي القائل: «يأخذون من الدم ويجعلونه على القائمتين والعتبة العليا.. ويكون لكم الدم علامة على البيوت التي أنتم فيها، فأرى الدم وأعبر عنكم، فلا يكون عليكم ضربةٌ الهلاك حين أضرب أرض مصر» (خر 12: 7، 13). والرب دائماً يحمي عوارض أبواب شعبه «وأبواب الجحيم لن تقوى عليها» (مت 16: 18) لأن الذي فيها أقوى من الذي في العالم (1يو 4: 4). فما أجمل الوعد القائل: «على أسوارك يا أورشليم أقمت حراساً لا يسكتون كل النهار وكل الليل» (إش 62: 6).

(2) تمنح الطمأنينة : «الذي يجعل تخومك سلاماً، ويشبعك من شحم الحنطة» (آية 14). عناية الله بشعبه تجعل حدودهم آمنة، فلا يهاجمهم مُعتدٍ أثيم، بل يجعل أعداءهم يسالمونهم، ويقول لهم: «ويسكن شعبي في مسكن السلام، وفي مساكن مطمئنة وفي محلات أمينة» (إش 32: 18). وحيث يسود السلام تسود البركة، ويفيض الرب على شعبه بشبع من دسم الحنطة بحسب جوده «لأنه قبل هذه الأيام لم تكن للإنسان أجرة.. ولا سلامٌ لمن خرج أو دخل.. أما الآن.. زَرْع السلام. الكَرْم يعطي ثمره، والأرض تعطي غلَّتها، والسماوات تعطي نداها، وأُملِّك بقية هذا الشعب هذه كلها» (زك 8: 10-12).

(ب) **سلطان الله:** (آيات 15-20).

(1) سلطان كلمته : «يرسل كلمته في الأرض. سريعاً جداً يُجري قوله» (آية 15). يدعو المرنم شعبه ليسبِّحوا الرب صاحب السلطان، الذي يقول «كن فيكون» وهو الذي يأمر فيصير «قال الله: ليكن نور فكان نور» (تك 1: 3). وكلمته تُجري مقاصده الصالحة. لم تسقط كلمة واحدة من كل كلامه الصالح (1مل 8: 56). في القديم صارت كلمة الرب إلى شعبه بالأنبياء، ولكنه كلَّمنا في ابنه «الكلمة صار جسداً وحلَّ بيننا، ورأينا مجده، مجداً كما لوحيدٍ من الآب، مملوءاً نعمة وحقاً» (يو 1: 14). تنازل «الكلمة» وهو المرتفع، واتضع وهو العالي، وافتقر وهو الغني لكي نستغني بفقره. كان الأنبياء يؤيدون رسائلهم بالقول: «هكذا قال الرب». أما المسيح فكان يقول: «الحق الحق أقول لكم» لأنه الكلمة والمتكلم، والرسالة والرسول، والنبي وموضوع النبوات، الذي دُفع إليه كل سلطان في السماء وعلى الأرض. قال للميت: «أيها الشاب لك أقول قم. فجلس الميت وابتدأ يتكلم» (لو 7: 14، 15) «انتهر الريح وقال للبحر: اسكت. ابكم. فسكتت الريح وصار هدوء عظيم.. وقالوا.. من هو هذا؟ فإن الريح أيضاً والبحر يطيعانه» (مر 4: 39، 41). ولا زالت كلمته تعمل في القلوب، لأن «كل الكتاب هو موحى به من الله، ونافع للتعليم والتوبيخ، للتقويم والتأديب الذي في البر، لكي يكون إنسان الله كاملاً، متأهِّباً لكل عمل صالح» (2تي 3: 16، 17).

(**2**) **سلطان قدرته:** «الذي يعطي الثلج كالصوف، ويذرّي الصقيع كالرماد. يلقي جَمْدَه كفُتات. قدام بَرْده من يقف؟ يرسل كلمته فيذيبها. يهبُّ بريحه فتسيل المياه» (آيات 16-18). يدعو المرنم شعبه ليسبحوا الرب شكراً على قدرته الظاهرة في سلطانه على الطبيعة. في الشتاء يعطي الثلج الأبيض كالصوف، ويذري الصقيع رمادي اللون، ويُنزل الجليد كفتات الخبز، فيرتجف الإنسان من شدة البرد. وسرعان ما يجيء الربيع فتذوب هذه كلها، وتهب الرياح الدافئة فتذوب الثلوج. هناك مناطق حارة تهطل فيها الأمطار، وهناك مناطق قطبية تغطيها الثلوج، وتنبت في هذه وتلك أنواع مختلفة من النباتات. في هذه المناطق تعيش أنواع من البشر والحيوان والطير، دبر الله لكل منها الظروف والطعام التي تلائمها وتعينها على البقاء. ويشبِّه المرنم الثلج بالصوف لأنهما يشتركان في اللون الأبيض، ولأن الرب صانعهما كليهما، ولأنهما لازمان للحفاظ على الحياة. ويصف المرنم الحالات التي نرى فيها الماء، فهو ثلج وجَمْدٌ وصقيع، يذوب ليصبح ماءً يروي الأرض، فتنمو النباتات، ويأكل الإنسان والطير والحيوان، ويشربون.

(**3**) **سلطان شريعته:** «يخبر يعقوب بكلمته، وإسرائيل بفرائضه وأحكامه» (آية 19). أحب الرب بني إسرائيل، وباركهم بشريعته، ووعظهم بأنبيائه، وعرَّفهم بأحكامه وطرقه، فقال لهم موسى: «احفظوا واعملوا. لأن ذلك حكمتكم وفطنتكم أمام أعين الشعوب.. لأنه أي شعب عظيم له آلهة قريبة منه كالرب إلهنا؟.. وأي شعب عظيم له فرائض وأحكام عادلة مثل كل هذه الشريعة؟» (تث 4: 6-8). أعطى الرب كلمته لبني إسرائيل، وكلمنا في المسيح «الكلمة الحي» وهو يعطي الحياة الأبدية لكل من يقبل المسيح الفادي والمخلِّص في كل قبيلة وشعب وأمة ولسان.

(4) سلطان حريته : «لم يصنع هكذا بإحدى الأمم، وأحكامه لم يعرفوها. هللويا» (آية 20). اختار الله بني إسرائيل ليعطيهم شريعته مكتوبة على لوحي حجر أعطاهما لموسى كليمه، ليكونوا «مملكة كهنة وأمة مقدسة» (خر 19: 6). ولكنهم احتفظوا بشريعة الرب لأنفسهم، ولم يعلِّموها للوثنيين من حولهم، بل إنهم كسروها وعصوا. لقد دعاهم ليكونوا نوراً للعالم وملحاً للأرض، واختارهم ليخبروا الأمم بحقِّه، كما قال لإبراهيم: «أباركك.. وتكون بركة» (تك 12: 2). لكنهم احتفظوا بالبركة لأنفسهم، فأخذها منهم وأعطاها لكل من يقبل فداء المسيح، وقال الوحي عن المسيح: «إلى خاصته جاء، وخاصته لم تقبله. وأما كل

الذين قبلوه فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله، أي المؤمنون باسمه» (يو 1: 11، 12). فصار هؤلاء المؤمنون الأمـــة التـــي تعرف الشريعة، فتهتف مع صاحب المزمور «هللويا!». فسبحان الله الذي فتح باب الإيمان لكل من يقبله!

اَلْمَزْمُورُ الْمِئَةُ وَالثَّامِنُ وَالأَرْبَعُونَ

1هَلِّلُويَا! سَبِّحُوا الرَّبَّ مِنَ السَّمَاوَاتِ. سَبِّحُوهُ فِي الأَعَالِي. 2سَبِّحُوهُ يَا جَمِيعَ مَلاَئِكَتِهِ. سَبِّحُوهُ يَا كُلَّ جُنُودِهِ. 3سَبِّحِيهِ يَا أَيَّتُهَا الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ. سَبِّحِيهِ يَا جَمِيعَ كَوَاكِبِ النُّورِ. 4سَبِّحِيهِ يَا سَمَاءَ السَّمَاوَاتِ، وَيَا أَيَّتُهَا الْمِيَاهُ الَّتِي فَوْقَ السَّمَاوَاتِ. 5لِتُسَبِّحِ اسْمَ الرَّبِّ، لأَنَّهُ أَمَرَ فَخُلِقَتْ، 6وَثَبَّتَهَا إِلَى الدَّهْرِ وَالأَبَدِ. وَضَعَ لَهَا حَدّاً فَلَنْ تَتَعَدَّاهُ.

7سَبِّحِي الرَّبَّ مِنَ الأَرْضِ يَا أَيَّتُهَا التَّنَانِينُ، وَكُلُّ اللُّجَجِ، 8النَّارُ، وَالْبَرَدُ، الثَّلْجُ، وَالضَّبَابُ، الرِّيحُ الْعَاصِفَةُ الصَّانِعَةُ كَلِمَتَهُ، 9الْجِبَالُ وَكُلُّ الآكَامِ، الشَّجَرُ الْمُثْمِرُ وَكُلُّ الأَرْزِ، 10الْوُحُوشُ وَكُلُّ الْبَهَائِمِ، الدَّبَّابَاتُ وَالطُّيُورُ ذَوَاتُ الأَجْنِحَةِ، 11مُلُوكُ الأَرْضِ وَكُلُّ الشُّعُوبِ، الرُّؤَسَاءُ وَكُلُّ قُضَاةِ الأَرْضِ، 12الأَحْدَاثُ وَالْعَذَارَى، أَيْضاً الشُّيُوخُ مَعَ الْفِتْيَانِ، 13لِيُسَبِّحُوا اسْمَ الرَّبِّ، لأَنَّهُ قَدْ تَعَالَى اسْمُهُ وَحْدَهُ. مَجْدُهُ فَوْقَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ. 14وَيَنْصِبُ قَرْناً لِشَعْبِهِ، فَخْراً لِجَمِيعِ أَتْقِيَائِهِ، لِبَنِي إِسْرَائِيلَ الشَّعْبِ الْقَرِيبِ إِلَيْهِ. هَلِّلُويَا!

سبِّحوه في الأعالي

يبدأ هذا المزمور وينتهي بكلمة «هللويا» وهي كلمة عبرية معناها «سبحوا الرب» أو سبحان الله! فالمزمور ترنيمة شكر لله الذي ينصر شعبه، ويردّهم من سبيهم، ويقرّبهم إليه، كما تقول الآية الأخيرة منه: «ينصب قرناً لشعبه، فخراً لجميع أتقيائه، لبني إسرائيل، الشعب القريب إليه. هللويا». ولعل هذا المزمور كُتب استجابةً لقول اللاويين لبني إسرائيل: «قوموا باركوا الرب إلهكم من الأزل إلى الأبد، وليتبارك اسم جلالك المتعالي على كل بركة وتسبيح. أنت هو الرب وحدك. أنت صنعت السماوات وسماء السماوات وكل جندها، والأرض وكل ما عليها، والبحار وكل ما فيها. وأنت تحييها كلها، وجُند السماء لك يسجد» (نح 9: 5، 6).

في هذا المزمور يدعو المرنم السماء وما فيها لتسبح الرب، فتستجيب الأرض لتسبيح السماء وتسبح معها. تبدأ السماء وتردُّ الأرض، فترنم الخليقة كلها معلنةً صلاح الرب الذي يستحق التمجيد والتسبيح، وتشترك كجوقة موسيقية متكاملة، ترفع ألحان الحمد للرب صخر الدهور الذي يُنعم على الكل. ونكاد نرى صاحب المزمور يطفر فرحاً كما فعل داود وجميع بني إسرائيل حين أصعد تابوت الرب بالهتاف وبصوت البوق «وكان داود يرقص بكل قوته أمام الرب» (2صم 6: 14). فلنقُل مع المرنم: «فأنا أيضاً أحمدك برباب، حقُّك يا إلهي. أرنم لك بالعود يا قدوس إسرائيل. تبتهج شفتاي إذ أرنم لك، ونفسي التي فديتَها» (مز 71: 22، 23).

في هذا المزمور نجد:

أولاً – السماء وما فيها تسبِّح الرب (آيات 1–6)

ثانياً – الأرض وما فيها تسبِّح الرب (آيات 7–14)

أولاً _ السماء وما فيها تسبح الرب
(آيات 1-6)

كان معظم الناس في زمن المرنم يعبدون الملائكة والشمس والقمر والنجوم، وهي معبودات باطلة. ويدعو المرنم هذه المعبودات الوثنية أن تبادر بإعلان عبادتها لله المعبود الوحيد، لأنه خالقها، حتى يخجل الذين يعبدونها، ويسجدون لخالقهم وخالق معبوداتهم. والمرنم يدعوهم بدعوة الله لهم: «أَخبِروا. قدِّموا ليتشاوروا معاً. مَن أعلمَ بهذه منذ القديم؟ أخبر بها منذ زمان؟ أليس أنا الرب ولا إله غيري؟ إلهٌ بار ومخلِّص. ليس سواي» (إش 45: 21). ومن الغريب أننا لا نزال نسمع عن أناسٍ يأتون من بلاد بعيدة لزيارة الأهرامات وأبي الهول والمعابد المصرية القديمة ويقيمون عندها طقوساً دينية لعبادة الشمس، كما لا تزال بعض القبائل البدائية الوثنية تعبد المخلوق دون الخالق. ويحمِّلنا هذا المزمور مسؤولية دعوة هؤلاء لعبادة الرب الخالق، فنذهب إلى العالم أجمع ونكرز بالإنجيل للخليقة كلها (مر 16: 15) «لأنه مكتوب: أنا حي يقول الرب، إنه لي ستجثو كل ركبة، وكل لسان سيحمد الله» (رو 14: 11، مقتبسة من إش 45: 23). ولقد رأى يوحنا اللاهوتي الحيوانات الأربعة، التي تمثِّل الخليقة غير الناطقة «لا تزال نهاراً وليلاً قائلةً: قدوس قدوس قدوس الرب الإله القادر على كل شيء، الذي كان والكائن والذي يأتي» (رؤ 4: 8).

1 – دعوة للتسبيح: «هللويا. سبِّحوا الرب من السماوات. سبحوه في الأعالي» (آية 1). قال بِلدد الشوحي، صديق أيوب: «هل مِن عددٍ لجنوده؟ وعلى مَن لا يشرق نوره؟» (أي 25: 3). وفي تهليل يدعو صاحب مزمورنا الخليقة الموجودة في

السماوات أن تسبِّح الرب من عليائها من أجل الرفعة التي منحها وميَّزها بها. ويدعو سائر البشر ليشتركوا معه في تسبيح خالقهم، فتصعد أصواتهم إليه رائحةً عطرة. والتسبيح يفرح قلب الله لأنه يُسمعه صوت خليقته وعمل يديه، وهم يهتفون: «أيها الرب سيدنا، ما أمجد اسمك في كل الأرض، حيث جعلت جلالك فوق السماوات!» (مز 8: 1).

2 – المدعوون للتسبيح: (آيات 2–4).

(أ) **الملائكة وجنوده:** «سبِّحوه يا جميع ملائكته. سبِّحوه يا كل جنوده» (آية 2). وكان هذا نداء داود: «باركوا الرب يا ملائكته المقتدرين قوة، الفاعلين أمره عند سماع صوت كلامه. باركوا الرب يا جميع جنوده، خدامَه العاملين مرضاته» (مز 103: 20، 21). وهذا ما رآهم إشعياء يفعلونه، فقال: «رأيت السيد جالساً على كرسي عالٍ ومرتفع، وأذياله تملأ الهيكل. السرافيم واقفون فوقه.. وهذا نادى ذاك وقال: قدوس قدوس قدوس رب الجنود. مجده ملء كل الأرض» (إش 6: 1–3). وهذا ما فعلوه عندما وُلد المسيح، فظهر جمهورٌ من الجند السماوي مسبِّحين الله وقائلين: «المجد لله في الأعالي، وعلى الأرض السلام، وبالناس المسرة» (لو 2: 13، 14). وقال يوحنا الرائي: «وسمعتُ صوت ملائكة كثيرين حول العرش.. قائلين بصوت عظيم: مستحق هو الحمل المذبوح أن يأخذ القدرة والغِنى والحكمة والقوة والكرامة والمجد والبركة. وكل خليقة مما في السماء وعلى الأرض وتحت الأرض، وما على البحر، كل ما فيها قائلة: للجالس على العرش وللحمل البركة والكرامة والمجد والسلطان إلى أبد الآبدين» (رؤ 5: 11–13). فهُم يسبحون سيد السماء والأرض، وهم جنوده، والأرواح التي يرسلها ليخدموا الذين سيرثون الخلاص (عب 1: 14).

(ب) **الشمس والقمر والكواكب:** «سبحيه يا أيتها الشمس والقمر. سبحيه يا جميع كواكب النور» (آية 3). الله نور وليس فيه ظلمة البتة (1يو 1: 5). ويدعو المرنم كل المخلوقات النورانية أن ترفع التسبيح لمصدر بهائها ولمعانها، والفاعل فيها لتضيء الكون، فقد «عمل الله النورين العظيمين: النور الأكبر لحُكم النهار، والنور الأصغر لحكم الليل. وجعلها الله في جَلَد السماء لتنير على الأرض» (تك 1: 16، 17). وهي تدور في فلكها تعلن دائماً مجد الصانع العظيم المحب لخليقته. «السماوات تحدِّث بمجد الله، والفلك يخبر بعمل يديه. يومٌ إلى يومٍ يذيع كلاماً، وليل إلى ليل يبدي علماً» (مز 19: 1، 2). واليوم نسبح الرب الذي لم يتركنا في ظلام العالم وعتامة الخطية، بل أرسل لنا المسيح يقول: «أنا هو نور العالم. من يتبعني فلا يمشي في الظلمة، بل يكون له نور الحياة» (يو 8: 12). فلنسلك كأولاد نور (أف 5: 8) وليضئ نور أعمالنا الحسنة أمام الناس فيمجدوا أبانا الذي في السماوات ويشتركوا معنا في تقديم السبح له (مت 5: 16).

(ج) **سماء السماوات والمياه:** «سبحيه يا سماء السماوات، ويا أيتها المياه التي فوق السماوات» (آية4). سماء السماوات هي السماوات العُلى، وقد قال موسى: «هوذا للرب إلهك السماوات، وسماء السماوات، والأرض وكل ما فيها» (تث 10: 14). وقد صعد الرسول بولس إلى السماء الثالثة (2كو 12: 2) وقالت الكتابات اليهودية المتأخرة إن السماوات سبعٌ. والمرنم يدعو السماوات العُلى أن تسبح خالقها، وتشاركها مياه السحب التي يقول عنها سفر التكوين: «قال الله: ليكن جَلَدٌ في وسط المياه. وليكن فاصلاً بين مياهٍ ومياه. فعمل الله الجلد، وفصل بين المياه التي تحت الجلد والمياه التي فوق الجلد. وكان كذلك. وقال الله: لتجتمع المياه تحت السماء إلى مكان واحد ولتظهر اليابسة، وكان كذلك» (تك 1: 6–9). وهذه المياه تحت أمر الرب الذي في سنة ست مئة من حياة نوح فجَّر كل ينابيع الغمر العظيم «وانفتحت طاقات السماء، وكان المطر على الأرض أربعين يوماً وأربعين ليلة.. ثم ذكر الله نوحاً.. فهدأت المياه. وانسدت ينابيع الغمر وطاقات السماء، فامتنع المطر من السماء» (تك 7: 11، 12 و8: 1، 2).

3 – موضوع التسبيح: (آيتا 5، 6).

(أ) **أمر فخُلقت:** «لتسبح اسم الرب لأنه أمر فخُلقَت» (آية 5). يقول المرنم إن السبب الجوهري لقيام هذه المخلوقات بتسبيح الخالق هو أنه أوجدها بأمرٍ منه. ولو لم يكن الرب قد أمر ما وُجدت. وتحس الطبيعة كلها بهذا الشرف فتسبح الرب وتعلن مجده وعظمة صنع يديه. ونحن اليوم نسبحه لأنه خلقنا خليقة جسدية بالميلاد الجسدي، ومنّا من يسبحونه أكثر لأنهم صاروا خليقة جديدة روحية بالميلاد الثاني من فوق. فإن لم تكن قد نلت الميلاد الثاني، فلتسمع قول المسيح: «إن كان أحد لا يُولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله. المولود من الجسد جسد هو، والمولود من الروح هو روح» (يو 3: 5، 6). لقد خلقنا الرب على صورته، ولكننا أفسدنا هذه الصورة الأولى بخطايانا، وهو يُعيد خلقنا إن رجعنا إليه تائبين، فنقدر أن نقول: «نحن عمله، مخلوقين في المسيح يسوع لأعمالٍ صالحة قد سبق الله فأعدَّها لكي نسلك فيها» (أف 2: 10).

(ب) **ثبَّتها**: «وثبَّتها إلى الدهر والأبد» (آية 6أ). أعمال الرب تسبحه لأنه خلقها ويثبِّتها، فهو ضابط الكل، وفيه يقوم الكل (كو 1: 17)، وكلها كائنةٌ بقدرته وإرادته، وثابتة تشهد لصلاحه. «كلمة الرب مستقيمة، وكل صُنعه بالأمانة.. امتلأت الأرض من رحمة الرب. بكلمة الرب صُنعت السماوات وبنسَمة فمه كل جنودها» (مز 33: 4-6).

(ج) **وضع لها حدّاً**: «وضع لها حداً فلن تتعدّاه» (آية 6ب). تسبح الخليقة الله لأنه جعل لها قوانين وحدوداً لا تتخطاها ولا تتعداها، فإن الرب هو «الجاعل الشمس للإضاءة نهاراً، وفرائض القمرِ والنجوم للإضاءة ليلاً. الزاجر البحر حين تعجُّ أمواجه» (إر 31: 35)، وهو الذي جعل عهده مع النهار والليل، فرائض السماوات والأرض (إر 33: 25).

وما فعله الرب بالطبيعة يفعله معنا، فقد خلقنا، وأعاد خلقنا، لأنه «إن كان أحدٌ في المسيح فهو خليقة جديدة. الأشياء العتيقة قد مضت. هوذا الكل قد صار جديداً» (2كو 5: 17). ووضع لنا قوانين وشرائع لا يجب أن نتعداها لنحيا في رضاه وتطول حياتنا على الأرض، ليس بالضرورة بعدد السنين، بل بعمق الحياة وكمالها كما قال المسيح: «أتيت لتكون لهم حياة، وليكون لهم أفضل» (يو 10: 10). فلنثبت في المسيح الذي قال: «اثبتوا فيَّ وأنا فيكم. كما أن الغصن لا يقدر أن يأتي بثمر من ذاته إن لم يثبت في الكرمة، كذلك أنتم أيضاً إن لم تثبتوا فيَّ» (يو 15: 4).

ثانياً _ الأرض وما فيها تسبح الرب
(آيات 7-14)

1 – المدعوون للتسبيح: (آيات 7-12).

(أ) **البحار وسكانها**: «سبِّحي الرب من الأرض يا أيتها التنانين، وكل اللجج» (آية 7). يدعو التنانين والزحافات الضخمة بأنواعها، صاحبة الأحجام والقوات الضخمة لتسبِّح الرب الذي خلقها، عندما «قال الله: لتفِض المياه زحافات ذات أنفس حية.. فخلق التنانين العظام، وكل ذوات الأنفس الحية الدبابة التي فاضت بها المياه كأجناسها» (تك 1: 20، 21). لتسبحه لأنه يعتني بها ويطعمها رغم ضخامة كمية الطعام الذي تلتهمه. ويطلب المرنم من اللجج، مكان سكن تلك التنانين أن تنضمَّ إلى ساكنيها في تسبيح الرب، لأنه جعل من الماء لججاً تحيا فيها الكائنات الضخمة كما تحيا فيها الصغيرة الحجم، وتبحر فيها القوية العنيفة مع الضعيفة الوديعة. وجعل تلك اللجج تحمل السفن الضخمة كما تحمل قوارب النزهة الرقيقة.

(ب) **قُوى الطبيعة**: «النار والبَرَد، الثلج والضباب، الريح العاصفة الصانعة كلمته» (آية 8). يدعو المرنم ما ندعوه قُوى الطبيعة لتسبح الرب، وهي في الحقيقة قُوى الرب الظاهرة للعيان أو الخفية عن الرؤية، ولكن فعاليتها محسوسة، فإن «الريح تهبُّ حيث تشاء، وتسمع صوتها، لكنك لا تعلم من أين تأتي ولا إلى أين تذهب» (يو 3: 8). رأى المرنم في العاصفة أضواء البرق، مختلطة بأصوات الرعد، فيهطل البرَد تارة، والثلج تارة أخرى، ويتكوَّن الضباب. وفي هذه كلها يعلن الرب عن قدرته، ويسدِّد بهذه الظواهر الطبيعية احتياجات خليقته «لأنه كما ينزل المطر والثلج من السماء ولا يرجعان إلى هناك بل يرويان الأرض ويجعلانها تلد وتُنبت وتعطي زرعاً للزارع وخبزاً للآكل، هكذا تكون كلمتي التي تخرج من فمي لا ترجع إليَّ فارغة، بل تعمل ما سُررت به، وتنجح في ما أرسلتُها له» (إش 55: 10، 11).

(ج) **المرتفعات والنباتات**: «الجبال وكل الآكام، الشجر المثمر وكل الأرز» (آية 9). يطلب المرنم من الجبال والتلال أن تتَّضع أمام الرب العالي وتعظم اسمه وتشيد بترنمه. ويدعو الأشجار المثمرة، وأشجار الأرز العالية الدائمة الخُضرة ذات الرائحة العطرية أن تشارك الجبال في ترنيمها، وتنحني للسيد صاحب الفضل والسلطان. «الجبال والآكام تشيد أمامكم ترنماً، وكل شجر الحقل تصفِّق بالأيادي» (إش 55: 12). ويتعلم المؤمنون من الجبال المرتفعة ومن النباتات أن يدركوا ارتفاعهم بالرب فوق العالم وآلامه، فيتواضعون تحت يد الله القوية ليرفعهم في حينه (1بط 5: 6) ويكونون «كشجرة مغروسة عند مجاري المياه، التي تعطي ثمرها في أوانه، وورقها لا يذبل» (مز 1: 3).

(د) **الحيوانات العجماء**: «الوحوش وكل البهائم، الدبابات والطيور ذوات الأجنحة» (آية 10). يدعو المرنم الوحوش التي تفترس لتحصل على طعامها، وكل البهائم التي تبحث عن قوتها، وكل ما يدب على الأرض كبُر أو صغُر، وطيور السماء التي لا تزرع ولا تحصد ولا تجمع إلى مخازن والرب يقوتها، يدعو هذه كلها لتسبح الرب الذي يستحق أن يسمع منها أصوات الحمد والتسبيح، لأن مراحمه جديدة عليها كل صباح.

(هـ) **كل البشر**: «ملوك الأرض وكل الشعوب، الرؤساء وكل قضاة الأرض. الأحداث والعذارى، أيضاً الشيوخ مع الفتيان» (آيتا 11، 12). تنتهي الدعوة للتسبيح بأن يدعو المرنم الإنسان تاج الخليقة ليسبح الرب، فيدعو كل البشر من كل مركز

اجتماعي ورسمي، من كل جنس وعمر ليرتلوا لله. يبدأ بدعوة أصحاب السلطان من ملوك ورؤساء وقضاة، كلَّفهم الرب بحكم الشعوب بالعدل، ووضعهم في أعلى المناصب الرئاسية والقيادية، وأعطاهم الحكمة لعمل مشيئته الصالحة. ثم يتَّجه بحديثه إلى الشعوب كلها ليرفعوا التسبيح لله، فتلهج ألسنتهم بترانيم الشكر والتسبيح للرب الصالح الذي يريد أن الجميع يخلصون وإلى معرفة الحق يُقبلون (1تي 2: 4).

وبعد أن دعا المرنم الشعوب عامة للتسبيح، اختصَّ بندائه فئات عُمْرية، منها البراعم الصغيرة في بداية الطريق من شبان وصبايا، فترتفع عيونهم لتنظر إلى جمال الرب، وتتطلع إلى غدٍ مشرق. ومنها الشيوخ بكل حكمتهم ووقارهم، والفتيان بكل قوتهم وحماسهم ليؤكدوا أن الرب هو الله، وأن كل ما عداه باطل وقبضٌ الريح.

2 – موضوع التسبيح: (آيتا 13، 14).

(أ) **يسبحون الاسم المجيد:** «ليسبحوا اسم الرب، لأنه قد تعالى اسمه وحده. مجده فوق الأرض والسماوات» (آية 13). اسم الرب دلالة على شخصيته، وإعلان عن صفاته وقدراته ومراحمه. «جلاله غطى السماوات، والأرض امتلأت من تسبيحه» (حب 3: 3). «احمدوا الرب. ادعوا باسمه. عرِّفوا بين الشعوب بأفعاله. ذكِّروا بأن اسمه قد تعالى. رنموا للرب لأنه قد صنع مفتخراً. ليكن هذا معروفاً في كل الأرض» (إش 12: 4، 5). وليس اسم آخر قد أُعطي تحت السماء بين الناس به ينبغي أن نخلُص (أع 4: 12). صنع رحمة وأجرى عدلاً، فامتلأ الكون من مجده، وهو المستحق وحده أن يأخذ المجد والكرامة والتسبيح.

(ب) **يسبحونه لأنه نصر شعبه:** «ينصب قرناً لشعبه، فخراً لجميع أتقيائه» (آية 14أ). يرمز القرن إلى القوة الغالبة، وعندما ينصب الله لشعبه قرناً يمنحهم النصرة والعزَّة والكرامة، فيفتخر جميع أتقيائه وخائفيه بالواهب الناصر «كما هو مكتوب: من افتخر فليفتخر بالرب» (1كو 1: 31، مقتبسة من إر 9: 23، 24). «لأنك قلت: أنت يا رب ملجإي، جعلت العليَّ مسكنك، لا يلاقيك شر ولا تدنو ضربة من خيمتك. لأنه تعلَّق بي أنجيه، أرفِّعه لأنه عرف اسمي» (مز 91: 9، 10، 14). «الرب إنما التصق بآبائك ليحبهم، فاختار من بعدهم نسلهم الذي هو أنتم فوق جميع الشعوب.. هو فخرك وهو إلهك الذي صنع معك تلك العظائم والمخاوف التي أبصرتها عيناك» (تث 10: 15، 21).

(ج) **يسبحونه لأنه قرَّبهم إليه:** «لبني إسرائيل الشعب القريب إليه. هللويا» (آية 14ب). اختار الله بني إسرائيل وقرَّبهم إليه، لا لأنهم أكثر الشعوب، فهم أقل من سائر الشعوب، بل اختارهم من محبته لهم (تث 7:7). والقُرب من الله يعني المصالحة معه، فإن الخطية تفصل بيننا وبينه ولكنه يصالحنا لنفسه بيسوع المسيح، أي إن الله كان في المسيح مصالحاً العالم لنفسه، غير حاسبٍ لهم خطاياهم (2كو 5: 18، 19). كما أن القرب منه يعني شركة الأُنس به والحب له فنقول: «أما شركتنا نحن فهي مع الآب ومع ابنه يسوع المسيح» (1يو 1: 3). «فلستم إذاً بعد غرباء ونُزلاً، بل رعية مع القديسين وأهل بيت الله» (أف 2: 19). والقرب منه يجعلنا نريد أن نتشبَّه به طاعة للوصية الرسولية: «كونوا متمثِّلين بالله كأولاد أحباء، واسلكوا في المحبة كما أحبنا المسيح أيضاً وأسلم نفسه لأجلنا، قرباناً وذبيحة لله، رائحة طيبة» (أف 5: 1، 2). والقُرب منه يجعلنا في رعايته وعنايته، كما يعني أننا سنكون معه إلى الأبد، كما قال المرنم: «الرب راعيَّ فلا يعوزني شيء.. وأسكن في بيت الرب إلى مدى الأيام» (مز 23: 1، 6).

ويختم المرنم مزموره بقوله «هللويا» سبحوا الله! سبحان الله!

اَلْمَزْمُورُ الْمِئَةُ وَالتَّاسِعُ وَالأَرْبَعُونَ

1هَلِّلُويَا! غَنُّوا لِلرَّبِّ تَرْنِيمَةً جَدِيدَةً، تَسْبِيحَتَهُ فِي جَمَاعَةِ الأَتْقِيَاءِ. 2لِيَفْرَحْ إِسْرَائِيلُ بِخَالِقِهِ. لِيَبْتَهِجْ بَنُو صِهْيَوْنَ بِمَلِكِهِمْ. 3لِيُسَبِّحُوا اسْمَهُ بِرَقْصٍ. بِدُفٍّ وَعُودٍ لِيُرَنِّمُوا لَهُ. 4لأَنَّ الرَّبَّ رَاضٍ عَنْ شَعْبِهِ. يُجَمِّلُ الْوُدَعَاءَ بِالْخَلاَصِ. 5لِيَبْتَهِجِ الأَتْقِيَاءُ بِمَجْدٍ. لِيُرَنِّمُوا عَلَى مَضَاجِعِهِمْ. 6تَتْوِيهَاتُ اللهِ فِي أَفْوَاهِهِمْ، وَسَيْفٌ ذُو حَدَّيْنِ فِي يَدِهِمْ، 7لِيَصْنَعُوا نَقْمَةً فِي الأُمَمِ، وَتَأْدِيبَاتٍ فِي الشُّعُوبِ. 8لأَسْرِ مُلُوكِهِمْ بِقُيُودٍ، وَشُرَفَائِهِمْ بِكُبُولٍ مِنْ حَدِيدٍ، 9لِيُجْرُوا بِهِمِ الْحُكْمَ الْمَكْتُوبَ. كَرَامَةٌ هَذَا لِجَمِيعِ أَتْقِيَائِهِ. هَلِّلُويَا!

يجمِّل الودعاء بالخلاص

يبدأ هذا المزمور وينتهي بكلمة «هللويا» أي سبحوا الرب، أو سبحان الله، وفيه يدعو المرنم شعب الله ليسبحوا الرب، لأنه اختارهم لنفسه من كل قبيلة وشعب وأمة ولسان، ليحمدوه ويرفعوا اسمه ويهللوا بتمجيده، ويصنعوا مشيئته ويحققوا مقاصده. إنهم خاصته الذين أحبهم وخلَّصهم وكلَّفهم أن يحملوا أخباره السارة وحقه إلى كل الشعوب. وهم مدعوون لتسبيحه على حاضرهم المؤمَّن عنده، وعلى مستقبلهم المضمون بيده. ويحذِّر المزمور الشعوب المعادية لعبادة الله بسوء العقاب «لأن الأمَّة والمملكة التي لا تخدمك تبيد» (إش 60: 12).

في هذا المزمور نجد:

أولاً – تسبيح لأجل الحاضر (آيات 1–4)

ثانياً – تسبيح لأجل المستقبل (آيات 5–9)

أولاً ـ تسبيح لأجل الحاضر
(آيات 1-4)

1 – صفات المسبِّحين: (آيتا 1، 2).

(أ) **نالوا بركة جديدةً**: «هللويا، غنوا للرب ترنيمة جديدة» (آية 1أ). منح الله المؤمنين بركات متنوعة، وفي كل يوم تتجدد مراحمه عليهم، لأن أمانته كثيرة (مرا 3: 23، 24). وكلما ينال المؤمن بركة جديدة يرتل ترنيمة جديدة شكراً على الفضل الجديد. إن معاملات الرب مع المؤمنين عجيبة ومتنوعة وسخية وبلا حدود، وهو يستحق منهم شكراً جديداً كل يوم. لقد منحهم حياة جديدة بعد أن أشرفوا على موت محقق، وأنقذهم من مخاطر مؤكدة ومن تجارب أكبر من قدرتهم على احتمالها، وأمدَّهم باحتياجاتهم اليومية. وهو لا يزال يجود على شعبه ليعلن لهم فضله وصلاحه وغناه بطرق ملموسة واضحة، فينعشهم ويجدد قواهم، لأنهم تعلموا شيئاً جديداً ودخلوا معه عمقاً جديداً، فيهتفون: «رنموا للرب يا أتقياءه واحمدوا ذكر قُدسه.. عند المساء يبيت البكاء وفي الصباح ترنُّم»» (مز 30: 4، 5). «اهتفوا أيها الصديقون بالرب. بالمستقيمين يليق التسبيح. احمدوا الرب بالعود. بربابة ذات عشرة أوتار رنموا له أغنية جديدة. أحسنوا العزف بهتاف» (مز 33: 1–3). «رنموا للرب ترنيمة جديدة. رنمي للرب يا كل الأرض. رنموا للرب. باركوا اسمه. بشِّروا من يوم إلى يوم بخلاصه» (مز 96: 1، 2). وفي التسبيح يعلن المؤمنون محبتهم للرب، واعترافهم بإحسانه، وتمجيدهم لشخصه لأنه أحبهم أولاً.

(ب) **هم أتقياء** «تسبيحه في جماعة الأتقياء» (آية 1ب). يعلو صوت التسبيح وسط جماعة الأتقياء، الذين يخافون الله، بعد أن بلغوا رأس المعرفة. والأتقياء هم الأمناء في أداء واجباتهم للرب، وهم المسرورون جداً بوصاياه التي تصيِّر الجاهل حكيماً، الذين يُقال عنهم: «طوبى للرجل المتقي الرب المسرور جداً بوصاياه» (مز 112: 1).. وهم يتَّقون الرب ويخافونه ليس رعباً من العقاب، ولا طاعة لأوامر سيدٍ قاس، ولكنهم يخشونه خشية الحرص على مرضاة من يحبون ويهابونه مهابة الحب والاحترام. والأتقياء هم الذين يرتلون ترنيمة جديدة تتجدد كل يوم. ومن يسبح الرب كما يسبحه الأتقياء؟! ومن يعلن فضله كما يعلنه مختاروه؟! إنهم يعلنون عن فضله بألسنتهم وبسلوكهم.

(ج) **هم فرحانونَ**: «ليفرح إسرائيل بخالقه. ليبتهج بنو صهيون بملكهم» (آية 2). يدعو المرنم محبي الرب ليرتلوا للرب ترتيل الفرح لسببين:

(1) لأنه الخالق: هم فرحانون بربِّهم الصانع الماهر والفخاري العظيم، الذي يصنع من الأتقياء أوانـي للكرامـة نافعـة لخدمته، مستعدة لكل عمل صالح (2تي 2: 21). «إذاً إن كان أحدٌ في المسيح فهو خليقة جديدة. الأشياء العتيقة قد مضـت. هـوذا الكل قد صار جديداً» (2كو 5: 17). فهو يستحق أن نذبح له ذبيحة الحمد، أي ثمر شفاه معترفة باسمه (عب 13: 15). «هلمَّ نسجد ونركع ونجثو أمام الرب خالقنا. لأنه هو إلهنا ونحن شعب مرعاه، وغنم يده» (مز 95: 6، 7).

(2) لأنه الملك: وهم فرحانون بربهم الملك الذي يشرِّع لهم، وشريعته كاملة ترد الـنفس وتهـديها إلـى سـبل البـر والاستقامة، وتضمن الوصول إلى الأبدية السعيدة. وتتحدى شريعة الملك حرية المتسيِّبين، لكنها تضمن للمطيعين الأمـان وبلـوغ الهدف، فالشريعة مثل القضبان اللازمة لسلامة سير القطار.. وهو الملك الذي يخطط لشعبه، فيقول له التقي: «عرفتُ يا رب أنـه ليس للإنسان طريقه. ليس لإنسان يمشي أن يهدي خطواته» (إر 10: 23). فيجيبه: «أعلِّمك وأرشدك الطريـق التـي تسـلكها. أنصحك. عيني عليك» (مز 32: 8). والملك يهتم بحاضر شعبه ومستقبلهم، فيضع الخطط لكفايتهم المادية والعاطفية والاجتماعية، ويدبر لهم احتياجاتهم فلا يعوزهم شيء.. وهو الملك الذي يدافع عن شعبه، حتى قال موسى لشعبه وهو يرى البحر الأحمر أمامه، وجيش فرعون وراءه: «الرب يقاتل عنكم وأنتم تصمتون» (خر 14: 14). وقال المسيح: «خرافي تسمع صوتي، وأنـا أدعوهـا فتتبعني، وأنا أعطيها حياة أبدية، ولن تهلك إلى الأبد، ولا يخطفها أحدٌ من يدي» (يو 10: 27، 28). فيقول المـؤمن: «إن نـزل عليَّ جيشٌ لا يخاف قلبي. إن قامت عليَّ حربٌ ففي ذلك أنا مطمئن» (مز 27: 3).. وهو الملك الذي يقضي لشـعبه، «الله هـو القاضي. هذا يضعه وهذا يرفعه» (مز 75: 7). عيناه تريان كل شيء، وهو يعرف خفيات القلوب، فيُحسِن إلى كل مـن يفعـل مشيئته ويجازيه علانية، ويعاقب الظالم وينقذ المظلوم من يده، فيقول الذي أُنصف: «تبتهج شفتاي إذ أرنم لك، ونفسي التي فديتها، ولساني أيضاً اليوم كله يلهج ببرك» (مز 71: 23، 24).

2 – التعبير عن التسبيح: «ليسبحوا اسمه برقص. بدفٍّ وعودٍ ليرنموا له» (آية 3). نحن نعبِّر لله عن تسبيحنا بالأسلوب الذي ينبع من حضارتنا. وفي زمن المرنم كان الناس يعبِّرون عن شكرهم لله بالرقص، وكانوا يستخدمون الآلات الموسيقية التي يعرفونها من دف وعود. وهذا ما فعلته مريم أخت هارون وقت الخروج من مصر، فيقول الوحي: «أخذت مريم النبية أخت هـارون الـدف بيدها، وخرجت جميع النساء وراءها بدفوف ورقص. وأجابتهم مريم: رنموا للرب فإنه قد تعظم. الفرس وراكبـه طرحهمـا فـي البحر» (خر 15: 20، 21). لقد عبَّرت مريم والنساء معها بالكلمات والموسيقى والرقص، بالشفاه وبالأجساد، بالقلب والفكر عـن فرحهن وتعظيمهن للرب الذي أنقذ شعبه. وقد ينتقد بعضنا اليوم استخدام الرقص والدف والعود للتعبير عن محبتنـا للـرب، كمـا انتقدت ميكال بنت الملك شاول زوجها داود، فيقول الوحي: «داود وكل بيت إسرائيل يلعبون أمام الرب بكل أنواع الآلات من خشب السرو، بالعيدان وبالرباب وبالدفوف وبالجنوك وبالصنوج.. خرجت ميكال.. وقالت: ما كان أكرم ملك إسرائيل اليوم، حيث تكشَّف اليوم في أعين إماء عبيده كما يتكشف أحد السفهاء» (2صم 6: 5، 20).. ولكن المرنم في مزمورنا يعبِّر للرب عن شكره وتسبيحه بالأسلوب الذي كان يناسب مجتمعه.

3 – دوافع التسبيح: (آية 4).

(أ) رضـى الـرب: «لأن الرب راضٍ عن شعبه» (آية 4 أ). أعظم ما يرجوه إنسان من ربه أن يرضى عنـه، فيقـول: «جعلتَ سروراً في قلبي أعظم من سرورهم إذ كثرت حنطتهم وخمرهم. بسلامة أضطجع، بل أيضاً أنام، لأنك أنت يا رب منفـرداً في طمأنينة تسكنني» (مز 4: 7، 8). ولا يرضى الرب عنا لصلاحٍ فينا، ولكن لأجل محبته الكثيرة «لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد، لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية» (يو 3: 16). وكل من يحتمي في كفارة المسـيح ينـال رضى الرب، لأن الرب لا يعود يرى خطايا الخاطئ التائب، بل يرى عمل المسيح الكفاري الذي ستره، فيحسب له بر المسيح. لهذا ندعو الله: اغفر لنا ذنوبنا، وكفِّر عنا خطايانا.

(ب) جمال الحياة: «يُجمِّل الودعاء بالخلاص» (آية 4ب). أفسد العصيان الصورة الجميلة البريئة والطبيعة النقية التـي خلق الله الإنسان الأول عليها. فقد «خلق الله الإنسان على صورته» (تك 1: 27) ولكن الجميع زاغوا وفسـدوا، وصـار الإنسـان ظلوماً كفاراً. وعندما ينظر الله من سمائه ليرى هل من فاهم طالب الله، يجد أن الجميع فسدوا، فينادي بكل الحـب: «التفتـوا إلـيَّ واخلصوا يا جميع أقاصي الأرض، لأني أنا الله وليس آخر» (إش 45: 22)، ويقدِّم الخلاص المجـاني للبشـر جميعـاً. وطـوبى للمساكين بالروح الذين يدركون حاجتهم المُلحَّة إلى رحمة الله، فيصرخون: «اللهمَّ ارحمني أنا الخاطي» (لو 18: 13). ويصـلّون مع داود: «قلباً نقياً اخلُق فيَّ يا الله، وروحاً مستقيماً جدِّد في داخلي» (مز 51: 10). ويجمِّل الله الخاطئ التائب بأن يُلبِسـه ثيـاب الخلاص ويكسوه برداء البر (إش 61: 10). هذا هو لباس التقوى الذي يواري السيئات، وهو رداء تسبيح من عند الله عِوضاً عـن الروح اليائسة (إش 61: 3). وكل من يرتدي ثياب الخلاص تتغير صورته في نظر نفسه وفي أعين الآخرين، لأن الله الذي يغفـر

لنا يقدِّسنا كل يوم. ويذكر الوحي أنواعاً من الخطايا، يقول بعدها للمؤمنين: «وهكذا كان أناسٌ منكم. لكن اغتسلتُم، بل تقدَّستُم، بل تبرَّرتُم باسم الرب يسوع وبروح إلهنا» (1كو 6: 11).

يدير الله أعظم معهد تجميل. إنه يجمِّل الشفتين بالكلام الصالح، والأذنين بالاستماع للكلام الصالح، واليدين بالعمل الصالح، والرِّجلين بالذهاب إلى المكان الصالح. وما أسعد الوديع المتواضع القابل للتعلُّم الذي يجمِّله الله بالخلاص من خطاياه.

ثانياً ـ تسبيح لأجل المستقبل
(آيات 5-9)

1 – صفات المسبِّحين: (آيتا 5، 6).

(أ) **ممجَّدون**: «ليبتهج الأتقياء بمجد» (آية 5أ). الأتقياء في مجد لأنهم ثابتون في الرب، فرحانون به، تتفرَّس عيونهم في جماله، وهم يستمدون سلوكهم من شريعته، وينتظرون المجد الذي يكللهم الله به، فيقولون بعد حياة جهاد طاهرة: «جاهدتُ الجهاد الحسن. أكملت السعي. حفظت الإيمان. وأخيراً قد وُضع لي إكليل البر، الذي يهبه لي في ذلك اليوم الرب الديان العادل. وليس لي فقط بل لجميع الذين يحبون ظهوره أيضاً» (2تي 4: 7، 8). وكل تقي يهاب الله ويخاف من أن يعصى حبيبه، ينال نصيب استفانوس، الشهيد المسيحي الأول، فقد «شخَصَ إلى السماء وهو ممتلئ من الروح القدس فرأى مجد الله، ويسوع قائماً عن يمين الله» (أع 7: 55). ما أعظم المجد الذي يعيشه التقي على الأرض محفوظاً في يدي الله. وما أعظم المجد الذي ينتظره بعد الوفاة، كما قال المسيح للص التائب: «اليوم تكون معي في الفردوس» (لو 23: 43).

(ب) **مستريحون**: «ليرنموا على مضاجعهم» (آية 5ب). عند حلول الليل يهجع التقي في مضجعه فيخلو إلى نفسه، يذكر فضل الله عليه، ويقول: «بشفتي الابتهاج يسبحك فمي إذا ذكرتُك على فراشي. في السُّهد ألهج بك، لأنك كنت عوناً لي، وبظل جناحيك أبتهج» (مز 63: 5–7). ثم يحاسب نفسه ويقيِّم ما فعله خلال يومه. فإن أحسن يشكر الله صاحب الفضل الذي ساعده ليعمل الحسن. وإن أساء يعلن توبته إلى الرب في صلاة خاشعة، فيؤكد الله له الغفران، فيرتاح قلبه ويتهلل لسانه في مضجعه. وحتى عندما يضطجع المؤمن مريضاً فإنه يرنم، لأن «الرب يعضده على فراش الضعف. مهَّدت مضجَعه كله في مرضه» (مز 41: 3)، ولأنه يعلم أن الرب شافيه (خر 15: 26).

(ج) **مُخبرون**: «تتويهات الله في أفواههم» (آية 6أ). ينوِّهون دائماً بفضل الله ويعظِّمونه كلما تحدَّثوا، ويلهجون بمحبته، فتنطق ألسنتهم بكثرة مراحمه، ويعلنون للجميع معاملات عنايته، ويخبرون بصنيعه معهم. في ناموس الرب مسرتهم، في شريعته يلهجون نهاراً وليلاً (مز 1: 2). فلنشهد للرب ونلهج بذكره على الدوام، فيهرب منا كل خوف، ويرتفع عنا كل اضطهاد، ويأتينا كل عون وفرح ونصرة.

(د) **متسلِّحون**: «وسيف ذو حدَّين في يدهم» (آية 6ب). لا يتحدث المرنم عن سيف أو رمح معدني من أسلحة الحرب، بل عن كلمة الرب التي هي سيف الروح (أف 6: 17)، وهي قوية فعالة وأمضى من كل سيف ذي حدين، وتخترق إلى مفرق النفس والروح والمفاصل والمخاخ، وتميِّز أفكار القلب ونياته (عب 4: 12). ويفهم التقي أن سلاحه روحي، حسب القول الرسولي: «أسلحة محاربتنا ليست جسدية، بل قادرة على هدم حصون» (2كو 10: 4). وموقف المسيحي من أسلحة الحرب المادية القاتلة هو موقف سيده المسيح، فعندما جاء يهوذا الإسخريوطي ومعه «جمع كثير بسيوف وعصي من عند رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب.. وإذا واحد من الذين مع يسوع مدَّ يده واستلَّ سيفه وضرب عبد رئيس الكهنة فقطع أذنه. فقال له يسوع: رُدَّ سيفك إلى مكانه، لأن كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون» (مت 26: 47–54).

2 – نتيجة التسبيح: (آيات 7–9).

كل كلمة تسبيح، وكل لهج باسم الرب، يحمل إنذاراً للخطاة أن يتوبوا، ونداءً للبعيدين أن يرجعوا.

(أ) **إدانة الشعوب**: «ليصنعوا نقمة في الأمم، وتأديبات في الشعوب» (آية 7). النور يؤذي العين المريضة، وتسبيحات المؤمنين وفرحهم نور يضيء الطريق للذين يحبون الله، ولكنه يؤذي عيون الأشرار لأنه يفضح خطاياهم، فيهاجمون أهل النور. قال المسيح: «إن كان العالم يبغضكم فاعلموا أنه قد أبغضني قبلكم. لو كنتم من العالم لكان العالم يحب خاصته، ولكن لأنكم لستم من العالم، بل أنا اخترتكم من العالم، لذلك يبغضكم العالم» (يو 15: 18، 19). ونقمة المؤمنين في الأمم ليست نتيجة كراهية، ولا هي تأديباتٌ بسلاح مدمر وجيوش قاتلة، فإن الوصية الرسولية تقول: «باركوا على الذين يضطهدونكم. باركوا ولا تلعنوا. لا

تجازوا أحداً عن شر بشر. إن جاع عدوك فأطعمه، وإن عطش فاسقه. لأنك إن فعلت هذا تجمع جمر نار على رأســه» (رو 12: 14، 17، 20). لكن تأديب الشعوب يكون بإعلان رسالة المحبة والخلاص، فتكون الرسالة بركةً لمن يقبلها، ولعنة لمن يرفضها.

(ب) سبي الملوك: «لأسْر ملوكهم بقيود، وشرفائهم بكبولٍ من حديد» (آية 8). المؤمنون الذين يسبحون الله يأســرون الملوك، فإن الله عيَّن الملوك والشرفاء ليطيعوه ويقيموا قضاءه. وإن لم يفعلوا يؤدبهم ويوقع بهم الهزيمــة. وكانــت العــادة فــي الحروب أن الجيش الغالب يأخذ الملك المهزوم مقيداً أسيراً مذلولاً، كما يسوق نبلاءه مكبَّلين بقيود حديدية. والمــرنم هنــا يعلــن انتصار ملكوت الله على ملكوت الظلمة، وتقييد رئيسه إبليس بالقيود، وتكبيل جنوده الشياطين بالكبول. وفي هــذا القــول رؤيــة مستقبلية، لأن ملكوت المسيا سيهزم إبليس، فقد قال المسيح: «رأيت الشيطان ساقطاً مثل البرق من السماء» (لو 10: 18)، وقــال الرسول يهوذا إن «الملائكة الذين لم يحفظوا رياستهم، بل تركوا مسكنهم، حفظهم (الرب) إلى دينونة اليوم العظيم بقيودٍ أبدية تحت الظلام» (يه 6). ولذلك ينصح المرنم الملوك العصاة بالقول: «فالآن يا أيها الملوك تعقَّلوا. تأدَّبوا يا قضاة الأرض. اعبدوا الــرب بخوف، واهتفوا برعدة. قبِّلوا الابن لئلا يغضب فتبيدوا من الطريق، لأنه عن قليل يتَّقد غضبه. طوبى لجميع المتكلين عليه» (مــز 2: 10-12).

(ج) إجراء الحكم الإلهي: «ليُجْرُوا بهم الحكم المكتوب» (آية 9أ). كتب الله حُكماً يقول: «أجرة الخطية هي موت» (رو 6: 23) و«النفس التي تخطئ هي تموت» (حز 18: 20). و«ويلٌ للذين يقضون أقضية البُطل، وللكتبة الذين يسجِّلون جوراً» (إش 10: 1). ويقول الله: «ها قد كُتب أمامي. لا أسكت بل أجازي. أجازي في حضنهم» (إش 65: 6). وقال أيوب: «لأنك كتبتَ عليَّ أموراً مُرَّة، وورَّثتني آثام صِباي» (أي 13: 26). ولا بد أن ينفذ الله الحكم المكتوب، وهو يكلِّف الأتقياء بتنفيذه، كمــا قــال الوحي: «ألستم تعلمون أن القديسين سيدينون العالم؟» (1كو 6: 2).

(د) كرامة الأتقياء: «كرامةٌ هذا لجميع أتقيائه» (آية 9ب). ينهزم الأشرار وينتصر المؤمنون، كرامة لجميع الأتقيــاء، فإن الرب يكرم الذين يكرمونه، والذين يحتقرونه يصغرون (1صم 2: 30). فلنسبح الرب ونعلن حقه في كل الأرض، لأن تسبيحنا يقود بعض الناس للتوبة، ولكنه يحكم على الأشرار بالهلاك. إن ترنيمنا شهادة للإله البار، وتهليلنا إعلان عن بركة وسعادة وســلام كل من يتبعه في ثقة ومحبة وطاعة، فنسمع قوله: «تعالوا يا مباركي أبي، رِثوا الملكوت المُعدَّ لكم منذ تأسيس العالم» (مــت 25: 34) ولكنه في الوقت نفسه إعلان القضاء على الأشرار الذين يسمعون الحكم الإلهي المخيف: «اذهبوا عني يا ملاعين إلــى النــار الأبدية المُعدَّة لإبليس وملائكته.. فيمضي هؤلاء إلى عذاب أبدي، والأبرار إلى حياة أبدية» (مت 25: 41، 46).

اَلْمَزْمُورُ الْمِئَةُ وَالْخَمْسُونَ

1هَلِّلُويَا! سَبِّحُوا اللهَ فِي قُدْسِهِ. سَبِّحُوهُ فِي فَلَكِ قُوَّتِهِ. 2سَبِّحُوهُ عَلَى قُوَّاتِهِ. سَبِّحُوهُ حَسَبَ كَثْرَةِ عَظَمَتِهِ. 3سَبِّحُوهُ بِصَوْتِ الصُّورِ. سَبِّحُوهُ بِرَبَابٍ وَعُودٍ. 4سَبِّحُوهُ بِدُفٍّ وَرَقْصٍ. سَبِّحُوهُ بِأَوْتَارٍ وَمِزْمَارٍ. 5سَبِّحُوهُ بِصُنُوجِ التَّصْوِيتِ. سَبِّحُوهُ بِصُنُوجِ الْهُتَافِ. كُلُّ نَسَمَةٍ فَلْتُسَبِّحِ الرَّبَّ. هَلِّلُويَا!

كل نسمة فلتسبح الرب

هذا المزمور خاتمة سفر المزامير، كما أنه آخر مزامير التهليل الخمسة (146–150)، وهو قمة التسبيح والتمجيد لله. ولا بد أن كل دموع المؤمن التقي وأنينه وحزنه على خطاياه، وضيقه من أعدائه، وخوفه من ضعفاته ينتهي بتسبيحة شكر لله، لأنه «عند المساء يبيت البكاء، وفي الصباح ترنُّم» (مز 30: 5). في هذا المزمور يدعو المرنم كل نسمة أن تسبح الرب لأنه مُعطي الحياة لكل الكائنات بنسمة فمه. ويدعو كل قُوى السماء والأرض، وكل خليقة ظاهرة وغير مرئية لتفرح وتشترك في احتفال دائم بالرب الأزلي الأبدي.

ويستحث المرنم البشر ليعزفوا بكل آلة موسيقية متوافرة لديهم، عندهم وعند غيرهم من الشعوب، ليرتفع النغم الجميل بالثناء والحمد لله. وكل ثناء يعلو على صوت الثناء والحمد لله يعني أننا قد أعطينا المجد لغيره، ونكون قد ارتكبنا خيانةً ضده، وإننا قد أشركنا معه أحداً في عبادته، مع أن الوصية الرسولية تقول: «أيها الأولاد، احفظوا أنفسكم من الأصنام» (1يو 5: 21). وكل من لا يسبِّح الرب يسلبه حقه الواجب عليه. فعلى كل نسمة أن تسبح الرب.

المزموران الأول والأخير من مزامير التهليل الخمسة (146–150) يبدآن وينتهيان بكلمة «هللويا» لكنهما يختلفان في الفحوى، فالأول يطوِّب التقي الذي يلهج في ناموس الرب ويوضح الواجبات الروحية المطلوبة من التقي، والمزمور الأخير يدعونا لنملأ حياتنا بالتسبيح بغير ملل. وهناك ارتباط كبير بين اللهج في ناموس الرب نهاراً وليلاً وتسبيح الرب، لأن صاحب القلب الممتلئ بكلمة الله يفيض لسانه تسبيحاً للرب.

في هذا المزمور تتكرر دعوة التسبيح ثلاث عشرة مرة، وهي دعوة لكل الأتقياء أن يسبحوا الرب لأنه أنعم عليهم بالتبني. فلنعلن عن محبتنا له وشكر قلوبنا على هذا الإنعام الإلهي الذي لا نستحقه لولا دم الحمل الكريم الذي فدانا بذبح عظيم.

في هذا المزمور نجد:

أولاً – تسبيح الرب (آيتا 1، 2)

ثانياً – آلات التسبيح للرب (آيات 3–5)

ثالثاً – المسبِّحون للرب (آية6)

أولاً ـ تسبيح الرب
(آيتا 1، 2)

1 – مكان تسبيح الرب: «هللويا. سبحوا الله في قُدسه. سبحوه في فَلَك قوته» (آية1). «هللويا» نداء لعبيد الرب القدوس ليرفعوا آيات التسبيح ويشيدوا ترنماً وهتافاً لكلي القداسة، ونبع النقاء والمحبة. وهم «في قدسه» يجب أن يطيعوا الوصية الرسولية: «نظير القدوس الذي دعاكم كونوا أنتم أيضاً قديسين في كل سيرة، لأنه مكتوب: كونوا قديسين لأني أنا قدوس» (1بط 1: 15، 16 مقتبسة من لا 11: 44). وقُدس الرب هو كل مكان يتعبَّد فيه الأتقياء للرب.

(أ) **قُدس الرب هو بيت العبادة:** الرب حاضر في كل مكان، لكنه حاضرٌ بصورة خاصة في بيته، كما يقول المسيح: «حيثما اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمي، فهناك أكون في وسطهم» (مت 18: 20). وينصحنا المرنم: «هاتوا تقدمةً وادخلوا ديارِه. اسجدوا للرب في زينة مقدسة» (مز 96: 8، 9) لأنه «ببيتك تليق القداسة يا رب» (مز 93: 5). فليكن تسبيحنا في بيته، مكان تقديسه وعبادته، حيث نصلي كما علَّمنا المسيح: «ليتقدس اسمك». وقد لا يكون مكان عبادة الله كنيسة، بل قد يكون سجناً، فعندما سُجن بولس وسيلا في فيلبي أخذا يصليان ويرتلان ويسبحان الله بصوت مرتفع حتى سمعهما المسجونون. وحدثت زلزلة عظيمة زعزعت أساسات السجن، فانفتحت الأبواب وانفكَّت قيود الجميع (أع 16: 25، 26).

(ب) قُدس الرب هو مكان اختلاء المؤمن بالرب: كل مكان يركع فيه المؤمن ليصلي هو قُدسٌ للرب، وقد أمرنا المسيح: «متى صلَّيتَ فادخل إلى مخدعك وأَغلِق بابك، وصلِّ إلى أبيك الذي في الخفاء. فأبوك الذي يرى في الخفاء يجازيك علانية» (مت 6: 6). وما أجمل أن تمتزج صلوات المؤمن مع تسبيحه للرب، فيشكر ويطلب، ويحمد ويتضرع.

(ج) قدس الرب هو سماؤه: قال المرنم: «سبحوه في فَلَك قوته» والفلك هو الجَلَد (تك 1: 7). «الرب في هيكل قدسه. الرب في السماء كرسيُّه» (مز 11: 4). هناك سماء الطيور، وسماء النجوم، والسماء العليا، حيث تسبح له الملائكة، وقد سمعهم النبي إشعياء يرتلون: «قدوس قدوس قدوس رب الجنود. مجده ملء كل الأرض» (إش 6: 1-3). وفي السماء يرتل قديسوه الذين غسلوا ثيابهم وبيضوها بدم الحمل: «الخلاص لإلهنا الجالس على العرش، وللحمل» (رؤ 7: 10).

والتسبيح في فلك قوة الله يجعلنا نتأمل قوة الله وقداسته. القوة بدون قداسة تظلم وتدمر، والقداسة بدون قوة لا تستطيع أن تنفذ. والرب بقوة قداسته لا يعسر عليه أمر، وكل عطية صالحة هي من عنده. فلنسبح هذا الإله العظيم القدوس القادر على كل شيء في كل مكان نتعبَّد له فيه.

2 – سبب تسبيح الرب: «سبحوه على قوّاته. سبحوه حسب كثرة عظمته» (آية 2). يسبح المؤمنون الرب لأنهم يُجري معهم الآيات والمعجزات بحسب كثرة عظمته. وقواته ظاهرة في الخلق، فقد أوجد الموجود من العدم، بمجرد كلمة منه. وهو يجدِّد قلب الخاطئ بميلادٍ جديد من فوق، ويجعل من الفاسد قديساً «ليُظهِر في الدهور الآتية غِنى نعمته الفائق باللطف علينا في المسيح يسوع» (أف 2: 7). و«إن كان أحدٌ في المسيح فهو خليقة جديدة. الأشياء العتيقة قد مضت. هوذا الكل قد صار جديداً» (2كو 5: 17).. وتظهر قوته العظيمة في عنايته بخليقته التي يرزقها كلها. ويسأل الله أيوب: «أتصطاد للَّبوة فريسة؟ أم تُشبِع نفس الأشبال؟» (أي 38: 39)، وقال المرنم: «كلها إياك تترجَّى لترزقها قوتها في حينه. تعطيها فتلتقط. تفتح يدك فتشبع خيراً» (مز 104: 27، 28). وقال المسيح: «لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون، ولا لأجسادكم بما تلبسون. أليست الحياة أفضل من الطعام، والجسد أفضل من اللباس؟ انظروا إلى طيور السماء. إنها لا تزرع ولا تحصد ولا تجمع إلى مخازن، وأبوكم السماوي يقوتها. ألستم أنتم بالحري أفضل منها؟» (مت 6: 25، 26).

على أن أعظم أعمال الله هو محبته الفدائية، فقد أحبَّ أبوينا الأوَّلين، وقبل أن يخلقهما هيَّأ لهما جنة ليعيشا فيها ويتمتعا بثمارها. ولكن محبته لهما ظهرت أكثر بعد أن عصيا، فسترهما بجلد ذبيحة، وكان هذا الستر رمزاً للستر الذي دبَّره المسيح لنا بفدائه وكفارته، فقال الرسول بولس: «متبررين مجاناً بنعمته بالفداء الذي بيسوع المسيح، الذي قدَّمه الله كفّارةً، بالإيمان بدمه، لإظهار برِّه، من أجل الصفح عن الخطايا السالفة، بإمهال الله. لإظهار برِّه في الزمان الحاضر ، ليكون باراً، ويبرر من هو من الإيمان بيسوع» (رو 3: 24-26).

ثانياً _ آلات التسبيح للرب
(آيات 3-5)

يدعو المرنم المؤمنين ليستخدموا كل الآلات الموسيقية المتوافرة عندهم وعند غيرهم من الشعوب في رفع ألحان التسبيح للرب القدوس. فالصور هو القرن أو البوق، استخدمه الإيطوريون. واستخدم الأركاديون المزمار، وهو يشبه الأرغول أو الأرغن. واستخدم الكريتيون العود، والمصريون الدف أو الطبلة الصغيرة، واستخدم العرب الصنوج أو الصاجات. ويريد المرنم أن يكون التسبيح مبهجاً، وأن لا يدَّخر المؤمنون وسعاً في الحصول على آلات العزف المفرحة.

1 – الصور: «سبحوه بصوت الصور» (آية 3أ). والصور هو قرن الثور أو الخروف، وعند النفخ فيه يُصدر صوتاً عالياً واضحاً يسمعه الجميع.

(أ) أعلن صوت الصور نزول الوحي: عندما أعطى الله شريعته لشعبه صاحبها صوت الصور (خر 19: 16). وعندما أعلن الرب رسالة خاصة على يد الرسول يوحنا للكنائس السبع، كان صوت البوق يسبقها، فقال يوحنا: «كنت في الروح في يوم الرب. وسمعت ورائي صوتاً عظيماً كصوت بوق قائلاً: أنا هو الألف والياء. الأول والآخِر. والذي تراه اكتُب في كتاب وأَرسِل إلى السبع الكنائس.. بعد هذا نظرت وإذا بابٌ مفتوح في السماء، والصوت الأول الذي سمعته كبوق يتكلم معي قائلاً: اصعد إلى هنا فأريك ما لا بد أن يصير بعد هذا» (رؤ 1: 10، 11 و4: 1). والمقصود أن صوت الله دائماً واضح مسموع لا تخطئه الأذن. و«من له أذنان للسمع فليسمع» (مت 13: 9).

(ب) أعلن صوت الصور بدء الأعياد: كان بنو إسرائيل ينفخون في الأبواق كلما أقبل أحد الأعياد، كما قيل: «انفخوا في رأس الشهر بالبوق، عند الهلال، ليوم عيدنا» (مز 81: 3)، وكانوا يعلنون به بدء سنة اليوبيل، السنة التي يتحرر

الناس فيها من الديون، وتعود الأرض المرهونة إلى أصحابها (لا 25: 9، 10). وقد أشار المسيح إلى سنة اليوبيل الحقيقية التي بدأت بمجيئه (لو 4: 19)، لأنه «إن حرركم الابن فبالحقيقة تكونون أحراراً» (يو 8: 36).

(ج) صوت البوق يعلن قدوم يوم الكفارة: كان بنو إسرائيل يعلنون بدء يوم الكفارة العظيم بالنفخ في البوق، وهو يوم الصوم الوحيد عندهم، وفيه يدخل رئيس الكهنة أولاً إلى قدس الأقداس بدمٍ عن نفسه. ثم يخرج ليعود بدمٍ آخر ليكفر عن خطايا الشعب (لا 16: 34 و25: 9). وهو رمز لعمل المسيح الكفاري على الصليب، فإن المسيح رئيس كهنتنا دخل إلى الأقداس بدم نفسه (لا بدمٍ عن نفسه) مرة واحدة، فوجد لنا فداءً أبدياً (عب 9: 12).

(د) صوت البوق يعلن التعبئة للحرب: كان بنو إسرائيل ينفخون في الصور للتحذير والتعبئة للحرب (إر 4: 5). ونحن اليوم في حرب روحية مع إبليس وجنوده، فلنضرب دوماً بالبوق ليستعد الأتقياء كما أمر المسيح: «اسهروا وصلّوا لئلا تدخلوا في تجربة» (مت 26: 41). وكما أمرتنا الوصية الرسولية: «اصحوا واسهروا لأن إبليس خصمكم كأسدٍ زائر يجول ملتمساً من يبتلعه هو. فقاوموه راسخين في الإيمان» (1بط 5: 8، 9).

(هـ) صوت البوق يعلن مجيء المسيح ثانية: «لأن الرب نفسه سوف ينزل من السماء بهتاف، بصوت رئيس ملائكة، وبوق الله. والأموات في المسيح سيقومون أولاً، ثم نحن الأحياء الباقين سنُخطف جميعاً معهم في السحب لملاقاة الرب في الهواء، وهكذا نكون كل حين مع الرب» (1تس 4: 16، 17 راجع 1كو 15: 52).

2 – رباب وعود: «سبحوه برباب وعود» (آية 3ب). وهما آلتان وتريتان، وللربابة عشرة أوتار وأحياناً اثنا عشر وتراً. واليوم توجد آلات وترية أخرى كالبيانو والكمان. وبالعزف على الآلات الوترية تصدر موسيقى حلوة تجذب القلوب، وتشد الانتباه بما يصاحبها من كلمات وتسبيحات لله. فلتصاحب هذه الآلات تسبيح الأتقياء ليتلذذ المرنمون والسامعون، ويمجدوا الله.

3 – الدف والرقص: «سبحوه بدف ورقص» (آية 4أ). الدف هو الطبلة الصغيرة تعزف عليها اليدان في إيقاعات مختلفة تترجم مشاعر الفرح بالرب. وفي الرقص يشارك الجسد والقدمان بالحركة، حسب الإيقاع، انطلاقاً وابتهاجاً. وقد كان الدف والرقص يصاحبان تسبيحات الفرح بعبور البحر الأحمر عندما «أخذت مريم النبية أخت هارون الدف بيدها. وخرجت جميع النساء وراءها بدفوف ورقص» (خر 15: 20).

4 - أوتار ومزمار: «سبحوه بأوتار ومزمار» (آية 4ب). يمتزج العزف أحياناً بآلة وترية مع آلة نفخ، وكان أول من استخدم هذا الامتزاج «يوبال» الذي كان أباً لكل ضارب بالعود والمزمار (تك 4: 21).

5 – صنوج التصويت والهتاف: «سبحوه بصنوج التصويت. سبحوه بصنوج الهتاف» (آية 5). الصنوج هي الصاجات، الصغيرة منها للتصويت، والكبيرة للهتاف. وهي من صفائح نحاسية مقعرة أو مجوفة تُضرَب إحداها بالأخرى فتُحدث موسيقى تزيد فرح الشعب بعبادة الرب.

وواضحٌ من كلمات المزمور أننا يجب أن نستخدم كل آلة موسيقية متوافرة، وكل ما يستُحدث لتسبيح الرب، مع ترنيم شفاهنا وحركات أيدينا وأقدامنا، لأنه «حيث روح الرب هناك حرية» (2كو 3: 17)، وقد «كان جميع بني إسرائيل يُصعِدون تابوت عهد الرب بهتاف، وبصوت الأصوار والأبواق والصنوج، يصوِّتون بالرباب والعيدان.. والملك داود يرقص» (1أخ 15: 28، 29).

ثالثاً _ المسبِّحون للرب
(آية 6)

«كل نسمة فلتسبح الرب. هللويا» (آية 6). هذه الآية هي نهاية سفر المزامير الذي يدعو كل من نال نسمة حياة أن يسبح خالقه، فتتحد الخليقة كلها في إعلان التمجيد والحب لمن وهبها الحياة والنعمة، ويقولون: «أسبِّح الرب في حياتي. أرنم لإلهي مادمت موجوداً» (مز 146: 2). ومع كل نسمة هواء تدخل صدورنا لتجدد حياتنا يتجدد شكرنا لله ووعودنا له بأن نطيعه، ونخضع له، ونتكل عليه بكل قلوبنا. فلنسبحه بإيمان واثق أنه العظيم المنتصر وأن لنا به وفيه النصرة و«يعظم انتصارنا بالذي أحبنا» (رو 8: 37)، ونقول له: «تعرِّفني سبل الحياة. أمامك شبع سرور. في يمينك نِعم إلى الأبد» (مز 16: 11) «أما أنا فبالبر أنظر وجهك. أشبع إذا استيقظت بشبهك» (مز 17: 15).

هللويا! افرحوا بالرب كل حين، لأن فرح الرب هو قوتكم. «حسنٌ هو الحمد للرب والترنم لاسمك أيها العلي. أن يُخبَر برحمتك في الغداة وأمانتك كل ليلة، على ذات عشرة أوتار وعلى الرباب على عزف العود. لأنك فرَّحتني يا رب بصنائعك. بأعمال يديك أبتهج. ما أعظم أعمالك يا رب وأعمق جداً أفكارك» (مز 92: 1-5).